مملكة الامام يحيى

رحلة فى بلاد العربية السعيدة

للكاتب الايطالى الذائع الصيت سلفاتور أبونتى

عربه من الايطالية

طه فوزى

موظف بمحكمة استئناف مصر الوطنية
ومدرس اللغة الايطالية بمدرسة الفنون الجميلة العليا

حقوق الطبع محفوظة

١٣٦٦ هـ - ١٩٤٧ م

مطبعة السعادة بجوار محافظة مصر

2269
.3545
.361

2269.3545.361
Fawzi
Mamlakat al-Imam Yahya

DATE ISSUED	DATE DUE	DATE ISSUED	DATE DUE

Princeton University Library
32101 073552315
Mamlakat al-Imām Yaḥya
مملكة الامام يحيى

مملكة الامام يحيى

رحلة فى بلاد العربية السعيدة

للكاتب الايطالى الذائع الصيت سلفاتور أبونتى

عربه من الايطالية

Taha Fawzi
طه فوزى

موظف بمحكمة استئناف مصر الوطنية
ومدرس اللغة الايطالية بمدرسة الفنون الجميلة العليا

حقوق الطبع محفوظة

١٣٦٦ هـ - ١٩٤٧ م

مطبعة السعادة بجوار محافظة مصر

الاهداء

الى مقام صاحب الجلالة الامام يحي بن محمد حميد الدين
محرر اليمن وأبى اليمنيين

أهدى هذا الكتاب

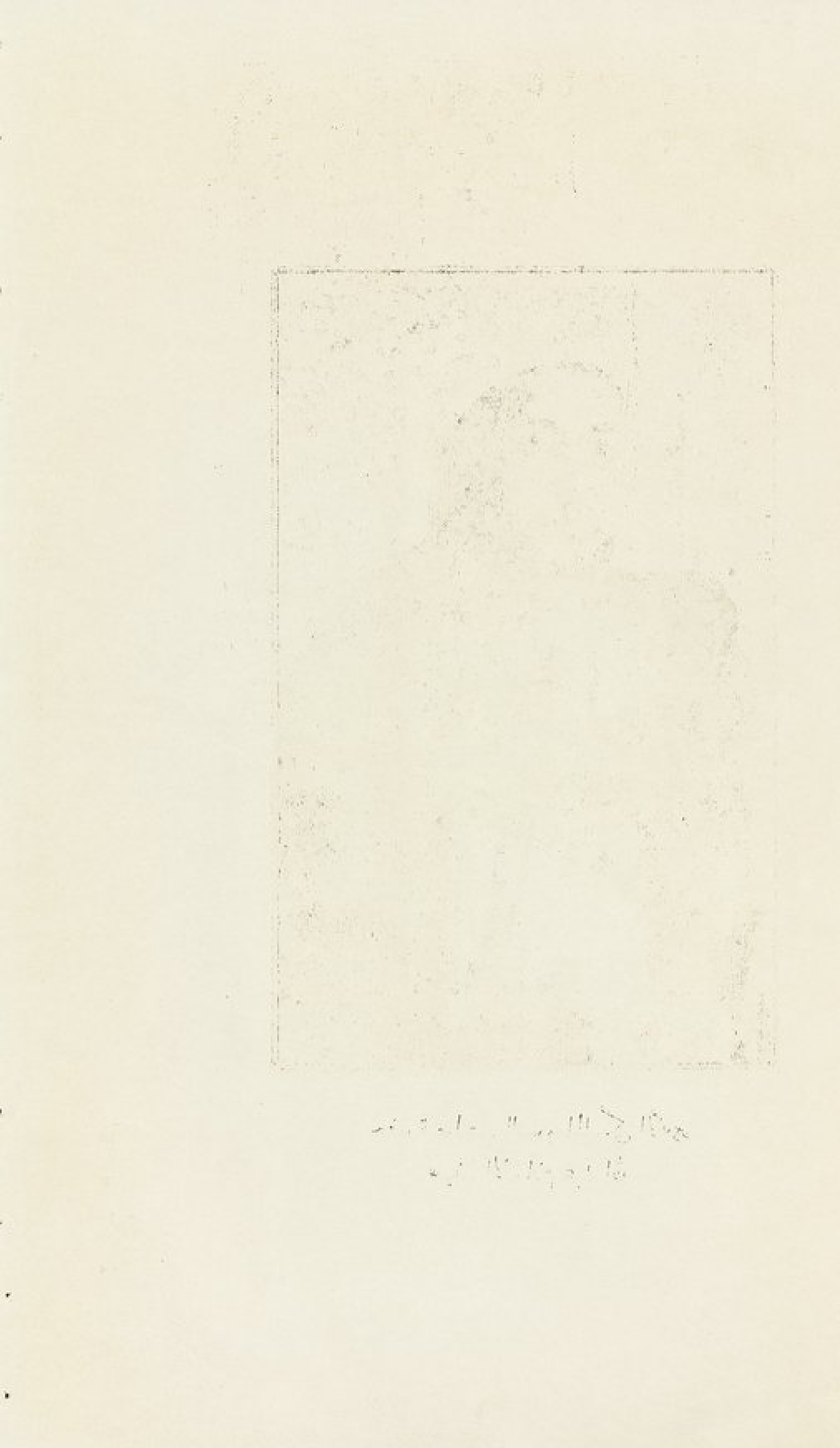
المعرب

2269
.3545
.361

موضوعات الكتاب



حضرة صاحب السمو الملكى الأمير
سيف الاسلام عبد الله



بسم الله الرحمن الرحيم

تمهيد

شغفت من عهد بعيد بمطالعة مؤلفات الرحالة وكتب السائحين الأوروبيين الذين وفدوا منذ القرون الوسطى حتى العهود الأخيرة على مصر وبلاد الشرق العربى فقرأت منها الشيء الكثير ولا سيما ما كتبه السائحون الايطاليون الذين كانوا أول من اتصل من أهل الغرب بالشرقيين من أمثال شيرياكو دى أنكونا وفريسكوبالدى وروزولينى دى بيزا وپيترو ديلا ڤالى وجيوفانى بلسونى دى بادوفا وروبيكى ريكيتى والسيدة آنى فيفانتى وغيرهم الذين زاروا مصر والشرق الأدنى والذين قصوا علينا فى مؤلفاتهم الثمينة كثيراً من الأخبار الطريفة والاوصاف الممتعة عن بلاد الشرق وآثارها وأهلها من بدو ومن حضر وذكروا الكثير من عاداتهم وصناعاتهم وطبائعهم وقد أتيح لى فى السنوات الأخيرة على أثر استماعى للمحاضرات الشائقة التى كان يلقيها عن البلاد اليمنية الاستاذ المأسوف عليه المستشرق الايطالى الكبير نالينو بالجامعة المصرية وفى قسم الثقافة العليا بجزيرة رودس — أن أعنى عناية خاصة بمطالعة ما كتبه بعض هؤلاء الرحالة والعلماء عن بلاد العربية السعيدة من أمثال لودفيك دى فارتيما الايطالى الذى قام برحلته الى الشرق من عام ١٥٠١ حتى عام ١٥٠٨م والذى كان أول أوروبى وضع دليلا قيما عن أسفاره فى مصر والشام والحجاز واليمن وبلاد فارس والهند وسيلان وملقا. ومن أمثال العالم الأثرى آرنو الذى وضع رسالة عن « رحلته إلى مارب » ورسالة أخرى عن « طائفة الأخدام فى اليمن » ونشأتها وعاداتها وطباعها إلى غير ذلك. ومن أمثال « بوتا » الذى وضع مؤلفا عن رحلته فى العربية السعيدة كما طالعت تلك الرسائل الممتعة التى كان يرسلها الاخوان لويجى وجوزيبى كابروتى — اللذان عاشا مدة فى اليمن — إلى « جمعية الاستقصاء التجارية الافريقية » فى ميلانو

ورحلة أخرى لمؤلف مجهول قام بها فى بلاد العربية السعيدة من عام ١٧٠٨ حتى عام ١٧١٠ وطبعت فى مدينة البندقية فى ١٧٢١ م — وكتاب « ثلاثة أعوام فى اليمن » الذى وضعه رنزو مانزونى وكتاب نيبوهر (وصف بلاد العرب) وكتاب ج . ب . روسى «اليمن» الذى وصف فيه بلاد اليمن وتربتها ونباتاتها وعطورها . والكتاب الذى وضعه الدكتور انسالدى (اليمن) الذى احتوى على تاريخ مختصر لليمن ووصف دقيق بارع لاحوالها ومناخها وكبار شخصياتها ثم أخيرا هذا الكتاب (مملكة الامام يحيى) الذى وضعه من نحو عشرة أعوام الكاتب الايطالى الذائع الصيت والصحفى القدير «سلفاتور ابونتى» واسماه (خفايا الحياة فى العربية السعيدة) وأستطيع القول بأن هذا الكتاب الأخير كان أكملها وأتمها وأوفاها جميعاً وكان أدقها تعبيراً وأصدقها تصويراً وأبرعها أسلوبا فقد تحدث مؤلفه الفاضل حديث الرجل الخبير الدقيق الملاحظة والمحدث الحلو الحديث الذى امتاز بفضيلة الانصاف والبعد عن الهوى وعند ما تلوت هذا الكتاب راقتنى طريقة مؤلفه فى البحث ودقته فى الوصف فنقلت إلى العربية بعض فصوله التى انصف فيها الشعب اليمنى وأشاد بجهود مليكه العظيم جلالة الامام يحيى حميد الدين وبوداعة أهل اليمن ولطفهم ودماثة أخلاقهم وحلو معشرهم والتى وصف فيها المدن اليمنية الجميلة والهضاب العالية ذات المناظر الفتانة أجمل وصف ونشرتها تباعا فى « مجلة الرابطة العربية » وتصادف أن قدم فى هذه الاثناء إلى مصر حضرة صاحب السمو الملكى الامير سيف الاسلام عبد الله وكان لى حظ التشرف بمعرفته ولما عرضت على سموه بعض هذه الفصول أبدى — حفظه الله وأعز به دولة الأدب — رغبته الكريمة فى نقل هذا الكتاب النفيس إلى اللغة العربية وقد شجعنى سموه تشجيعاً لن أنساه وأمدنى ببعض معلوماته القيمة وملاحظاته الثمينة على بعض ما وقع فيه الكاتب من الهنات الهينات فكان لسموه الفضل الأول والاخير فى اخراج هذا الكتاب ووضعه فى متناول أيدى الناطقين بالضاد أدام الله حياته وأبقاه نصيراً للادب والمتأدبين أنه سميع مجيب .

المعرب

١

فراديس فى الخيال

فى اليوم الرابع والعشرين من شهر شعبان من سنة ثلاثة وخمسين وثلثمائة وألف دخلت الأراضى اليمنية الواقعة تحت سلطة الامام يحيى بن محمد حميد الدين وكان أول شىء وقع عليه نظرى هو جزع شجرة عوجاء لم تفقدها السنون كل فروعها قد وقفت فى منتصف الطريق تمنع المرور وينتهى عندها كل أثر للمسير . ولم تكن العواصف والأعاصير مخطئة فى الابقاء عليها لأنها — وقد كان الى جانبها ثلة من الجنود من مختلف الأسلحة — كانت حارسة ذلك السد المنيع الذى يرسم الحدود الجنوبية لمملكة اليمن والذى يفرض على السائح الأجنبى قفزة بهلوانية ترجع به الى ما وراء ستة قرون من الزمان .

وعلى مسافة كيلو مترين اثنين من الطريق كان يبدو للعيان الجرك اليمنى وكان به ما يقرب من الخمسة عشر جنديا مسلحون كلهم حتى أسنانهم بينما كانت تبدو من خلال طيات عمائمهم المختلفة الألوان حزم صغيرة ظريفة من أعواد تشبه اعواد الريحان ، وكانت وجوههم الزيتونية الجافة تبتسم للغريب الذى يسمح له الامام بالقيام برحلة إلى صنعاء .

ولا يذهب إلى صنعاء كل من أراد ذلك . ومكة — كما هو معلوم — محرمة على غير المسلمين وكذلك هذه المدينة المقدسة فهى محكمة السد منيعة الجانب لا يدخلها من الأجانب إلا ذو حظ عظيم . لأنها تستقبل فى أحوال نادرة أحد الأجانب النادرين وكم رفضت الكثيرين من الراغبين فى زيارتها وأبقتهم بقسوة مريرة بعيدين عن أسوارها الطينية الغبراء .

وإن صعوبة الدخول فى مملكة اليمن تجعل السفر اليه من الأمور المحببة المرغوب فيها لأن ثمار الشجرة المحرمة هى أشهى الثمار فى كل زمان ومكان ، وقد قيل فى الأمثال : أحب شىء إلى الانسان ما منعا . واليوم بينما يستطيع كل انسان أن يذهب أنى شاء متى شاء ، وحيث أصبح كل ركن من أركان

المعمورة آهلا بالسكان معروفا للجميع . وأخذت صور معالمه ومغانيه بآلات التصوير ، وعرضت على لوحات السينما على ايدى الزائرين العديدين ، فان إمكان الدخول فى بلد مقفول يعتبر من الميزات الثمينة التى لا تقدر بمال ، وعلى لأخص إذا كان هذا البلد من بلاد العرب ، التى تجلب لنفس السائح بهجة الاكتشاف المزدوج : اكتشاف المكان واكتشاف الزمان .

ويتساءل الكثيرون عما إذا كانت بلاد العرب هى فى الحقيقة جزء من القارة الاسيوية لأن الخليج الذى يفصل شبه الجزيرة عن القارة السوداء لا يزيد اتساعه كثيراً على ذلك الخليج الذى يفصلها عن بلاد الفرس كما أن مواصلات البلاد العربية مع الغرب كانت دائما أكثر منها مع الشرق لأن جل الذين أتوا للاختلاط بالبذور السامية الذين تكون منهم شعب شبه الجزيرة الأول إنما جاءوا من شواطىء البحر الاحمر المقابلة ومع ذلك فان القارة الاسيوية المعروفة لنا بسيل المدنية القديمة المنهمر الذى أمد العالم بالانبياء والمحاربين والفلاسفة والذى وقفت مياهه ونضب معينه منذ قرون — لاتزال تعرف بعدم الثقة الغريزية فيها نحو الاجنبى — تلك الخصلة التى هى من خصائص الاسيويين والتى تبدو لنا تحت مختلف الاشكال فى كل مكان من بلاد الشرق

وتضاف الى الصعوبات السياسية التى يلقاها من يريد زيارة اليمن مصاعب السفر المادية اذ أن الانتقال فيها لا يمكن أن يتم بدون وسائل شاقة مضنية وبين مميزات اليمن الفريدة أنه لا يمتلك كيلو مترا واحداً من السكك الحديدية وقد كانت هذه الميزة الفريدة على وشك الضياع فى العهد التركى عند ماحصلت شركة افرنسية على امتياز بانشاء خط سكة حديدية يمتد من الحديدة إلى العاصمة اليمانية ولكن جاءت الحرب العظمى الاوروبية الاولى فى سنة ١٩١٤ مبكرة وقبل الأوان واوقفت الاعمال فى هذا الخط بعجزد ابتدائها . وأما القضبان التى كانت قد مدت على مسافة قصيرة من الساحل فقد خلعها قطعة بعد أخرى أصحاب « السنابيك » الذين كان يسوءهم أن يعودوا من الحديدة بعنابر مراكبهم خاوية (ويقال ان الحكومة الافرنسية ترسل فى كل عام وبدون

انقطاع الى الحكومة اليابانية مذكرة تلح فيها بطلب تعويض عن الخسائر التى تحملتها الشركة صاحبة هذا الامتياز وان الامام يستقبل هذه المذكرات بابتسامة ويودعها ضمن محفوظات الدولة واضابيرها) .

وفضلا عن ذلك فان الطرق فى اليمن غير متوفرة والى سنوات قليلة كانت البلاد تجهل كل الجهل استعمال العجلات ، اذ كانت تستعمل الخيول العربية الكريمة للرؤساء والكبراء ، كما كانت تستعمل الجمال والحمير والبغال لنقل الاحمال . ومن المعلوم أنه فى البلاد الاقل مدنية فى أفريقيه بدأت الجمال تفقد بسرعة ما قدر لها كدواب للحمل ولكن بلاد العرب بقيت البلاد الوحيدة التى تكثر فيها القوافل التى تزيد فى بهجة مناظرها العظيمة الخلابة .

أما الآن فقد ظهرت هنا أيضا السيارة ولكنها تبدو كشىء دخيل وتعتبر كألعوبة خفيفة متأرجحة رجراجة غير أمينة وكان استعمالها سببا فى هياج بعض رؤساء الدين وثورتهم وها هم أولاء لا يزالون إلى اليوم لا يستطيعون اخفاء كراهيتهم واستنكارهم عند ما يرون أراضى اليمن المقدسة يشوهها ظهور تلك الآلة الجهنمية ، على أن معظم السيارات القليلة التى استحضرت لا تزال باقية بدون استعمال أو تسير حتى يصيبها شىء من العطب فى المدرجات الصخرية أو على سفوح الجبال ثم تترك بدون اصلاح . وقد حصل أحد « سيوف الاسلام » أى أحد أبناء الامام على بعض السيارات وأجرها لبعض الأفراد وحذا حذوه بعض الرؤساء الآخرين . ولكن هذه الوسيلة من وسائل النقل المسيطرة على حياة الغرب إنما هى هنا بالنسبة لمن يستعملونها ليست إلا من الأشياء الكمالية التى لا يقصد بها إلا الزخرف وحب الظهور ولا شىء غير ذلك .

أما أعمال البريد فى اليمن فانها بالرغم من بطئها تؤدى وظائفها بمنتهى الدقة والنظام ويقوم بها « سعاة » يسيرون على أقدامهم مسافات تقدر فى بعض الأحيان بالثلاثين أو الأربعين من الكيلو مترات ولا يركبون الجمال والبغال الا فى بعض المناطق فقط .

ومما لا شك فيه أن السيارة سوف تفرض نفسها أيضا فى بلاد العربية

السعيدة إن عاجلا أو آجلا ، وكذلك سوف تنشأ هنا فى آخر الأمر بعض الطرق التى تظهر عليها تلك اللعب الاوروبية قليلة الارتجاج ، وسوف تفقد فى نظر بعض اليمنيين المتنطعين صفتها الشيطانية ، فقد افتتح منذ سنتين للمواصلات بكثير من الجرأة والشجاعة طريق السيارات الذى يبدأ من صنعاء إلى الحديدة والذى يربط الهضاب الغنية بالسهل والبحر كما يوجد الآن طريق آخر هو طريق « عدن — تعز » .

وبعد امضاء معاهدة الصداقة التى أبرمت فى شهر فبراير من عام ١٩٣٤ اتفقت الحكومة اليمنية مع السلطات الانجليزية على ضرورة فتح بلاد اليمن للتجارة والتعامل مع عدن لمصلحة البلادين وقد أعلن رسميا إتمام الأعمال فى الطريق الجديد ، ويظهر الآن شريانه على خريطة بلاد العرب واضحاً كل الوضوح ، على أنه توجد طرق أخرى كثيرة تظهر بشكل عظيم فى خرائط أفريقيا وآسيا ولكنها اذا ما بحث عنها على الطبيعة كان من أصعب الأمور العثور عليها وهذا هو ما دعا السائق « مسعود عوض » الذى له خبرة ومقدرة فريدة على قيادة السيارات فى الأراضى اليمنية والذى كلف بنقلى فى سيارته المتينة من عدن إلى صنعاء وما جعله يستصحب معه مساعده « أحمد عبده » الذى كان أول واجباته أن يدلنا على الطريق السوى ، وأن يساعدنا عندما يقتضى الحال أو عندما ينقطع أثر الاقدام .

وكان الى جانب السائق ومساعده الخادم « عبد القادر » أحد أفراد قبيلة الاخبارى الذى كان يتكلم الايطالية بطلاقة لأنه خدم مدة من الزمن أحد قناصل إيطاليا وذهب معه حيث بقى وقتا طويلا فى مدينة « سيينا » بايطاليا وكان يتحدث معى بدون تكليف . أما السيارة فلم تكن لتتسع لكثير من الناس غير من ذكرت لأنها كانت مشحونة بالأمتعة وقطع الغيار التى كان من المحتمل أن تصبح ضرورية وكان بها أيضا مقدار كبير من المؤونة من البنزين والزيت فضلا عن الأمتعة التى كانت تشتمل على الحقائب ، وعلى كمية عظيمة من الاشياء التى تكاد تكون السياحة فى الوقت الحاضر قد نسيتها تماما ، هى ماء للشرب فى زمزمية من زمزميات الميدان وعدة علب من المأكولات

المحفوظة وكان هناك أيضاً كيس من شأنه زيادة الحمل زيادة كبيرة وهو كيس النقود لأن الشعب اليمنى ليست له ثقة فى قطع الأوراق التى يتعامل بها الناس فى البلاد الأخرى كنقود اذ أنه فى اليمن كما فى بلاد الحبشة يستعمل ريال « ماريا تيريزا » الذى تنحصر قيمته فى وزنه وانه وأيم الحق لعملة تدعو للاطمئنان ولكن حملها ثقيل متعب . وكان فى هذا الكيس الف من الريالات لايقل وزنها عن الثمانية والعشرين من الكيلو جرامات .

كل أولئك قد صف ونظم بعناية كبيرة فى داخل العربة وعلى أطرافها وعلى حمالاتها ورفارفها وجلس « عبده » فوق صفائح البنزين والحقائب وهو واثق من أنها تحمى رأسه من الاصطدام بسقف العربة وقد أتم « أحمد » الرحلة وهو جالس فوق الحمالة متحاشياً بما أوتيه من ثبات عظيم من السقوط فى الحقول عند كل هزة عنيفة تهتزها السيارة .

بهذه الحمولة الكبيرة وبهذه الحاشية الفاتنة سافرنا من عدن فى الفجر وكان المسلمون الصالحون لايزالون على شاطىء البحر وأرجلهم مدلاة فى المياه حيث يقومون بوضوئهم الدينى الجليل وقد وقفوا كلهم بعد ذلك فى صفوف متراصة كأنهم فى انتظار القيام باستعراض عظيم . وقد سرنا بسرعة عظيمة تاركين عن يسارنا ذلك المنظر البهيج لتلك الأهرام المصطفة من الملاحات الايطاليـة على حافة المستنقع المملوء بالمياه ومضينا قدما بين الحدائق الغناء والقفار المكفهرة فى بلدة « الشيخ عثمان » .

وبعد وقفة قصيرة وقفناها فى جمرك سلطنة لحج رأينا أوحالا وخرقا وحظائر للجمال ومراقد وأرائك ومقاعد صنعت كلها من أغصان الصفصاف ممتدة على طول الطريق كما شاهدنا وجوهاً تبدو عليها آثار النـوم وخناجر دمشقية ونرجيلات نخمة متعددة الألوان والأحجام وبعد كل ذلك مباشرة ها نحن أولاء نأخذ طريقنا ونتجه نحو بلدة « المسامير » مارين بعدة قوافل من الابل تتفرق عند ظهور السيارة فى السهل الرملى المجدب الذى تظهر عليه من وقت لآخر بعض الأعشاب القليلة المبعثرة هنا وهناك ونقابل على سفوح الجبال على حين بغتة واحة « لحج » واذا بها تضم حقولا يانعة مملوءة بأشجار

المانجو العالية ذات الأوراق الخضراء الكثيفة وشجيرات الموز الفخمة ذات الرائحة العطرية الفيحاء وحقول الأعشاب الطبية التى انتظمت بين صفوف النخيل . وتضرب هذه المزروعات حلقة خضراء حول تلك المدينة المنعزلة المكونة من بيوت حقيرة بنيت بالطين والتى تضم أيضا بعض القصور ذات الزخارف التى تبهر النظر وتسر الخاطر وبعد أن يتخطى الزائر ميدانا فسيحاً غير منتظم الشكل كانت تتمرن فيه بعض العساكر بدون حماسة ظاهر على استعمال المتراليوزات يظهر بناء عظيم من طراز لايمكن وصفه وليس من السهل تعريفه كله شرفات وكله أعمدة وكرانيش وزخارف من الرخام يبهر النظر كتب على واجهته بأحرف عربية واضحة وبخط عريض « قصر السلطان عبد الكريم فضل » وقد وضعت ورقة يميل لونها للاصفرار ثبتت بثلاثة مسامير قديمة على باب البناء الذى يفتح فى سور الحديقة وكتب عليها أن الدخول ممنوع ولكن الأجانب الذين يتخطون حدود السلطنة بجواز مرور من مقر حكومة عدن يستقبلون بكل ترحيب وإكرام .

وقد قبل سلطان لحج مع الشكر حماية بريطانيا ومعاشاً سنويا يتقاضاه منها ويعيش عيشة راضية مطمئنة ويحكم بدون قسوة ولا شدة رعاياه المخلصين كما أنه يحصل بدون هوادة الرسوم الجمركية من القوافل التى تخترق أرض بلاده وهو يتلطف بتقديم بعض جنوده للمسافرين من ذوى الحيثية والمقام يرافقونهم فى عربة قديمة حتى الحدود اليمانيـة . وقد استعملت السياسة البريطانيـة منذ عهد بعيد طريقة المرتبات للسلاطين والأمراء والشخصيات الكبيرة ذات النفوذ وهى طريقة لا بأس بها ولو أنها لقيت بعض النقد الشديد من بعض الانجليز الذين يجدون أنها تكلف خزانة الدولة مالا كثيراً وتعتبر اسرافا لاموجب له وفضلا عن ذلك فان انجلترا قد ناطت منذ عدة سنوات مسألة اكتساب صداقة سكان البلاد العربية وثقتهم بمصلحتين من مصالحها احداهما « المكتب العربى » بالقاهرة وثانيتهما « المكتب الهندى السياسى » بمدينة دلهى ويحدث غالباً أنه عندما يسند المكتب المصرى أحد الأمراء ويدفع له راتباً يكون المكتب الهندى يسند خصمه

ويدفع له راتباً آخر وأظهر حادث من هذا النوع كان تلك المساعدات القيمة التى قدمت بسخاء للحسين ملك الحجاز الأسبق الذى كان المكتب العربى يعضده ويعمل على توحيد كل شبه جزيرة العرب تحت سلطانه والذى طرح جانباً وتخلى عن سلطته لابن السعود الذى طالما لفت اليه المكتب الهندى عبثاً أنظار لندره وحكومتها .

أما سلطان لحج فهو رجل مهذب طيب القلب كريم الخلق جل همه هو تشييد القصور ذات الزخارف المتنوعة والطراز الغريب وقد شيد قصراً فى عدن فى حى « كراتز » اعتاد أن يذهب إليه من آن لآخر فى سيارة فخمة يقودها سائق حافى القدمين والانجليز يدعونه يفعل مايشاء ولا يعارضونه ولا يحتجون على هذا المنظر المنافى للذوق والذى لايتفق مع جلال السلطنة وهيبة الملك . وسلطنة لحج هى أهم وأشهر جزء فى « المحميات » .

وبعد لحج بقليل يبتدىء الطريق الجديد الشهير وفيه تزداد آلام المسافر ومصاعبه فان آثار الاقدام تختفى بين الجبال للبحث عن منافذ أقل وعورة وهانحن أولاء نندفع فى مجرى السيول ثم نصعد ثانية فوق الصخور حيث ترتفع الاعشاب ذات الفروع الطويلة وترتج السيارة ارتجاجات قوية وتشب بمقدمها وترتفع عن الأرض وهى تزأر زئيراً عالياً فوق تلك الطرقات المتكسرة وتخاطر بتخطى بعض القمم الصخرية ثم لاتلبث أن تنخفض وتزحف فى بعض القنوات الكبيرة بين لفائف ومدارج الصخور المتفرقة هنا وهناك ويغلى الماء فى خزانها غلياناً شديداً ولا يستطيع المسافر بأية حال أن يقطع مسافة تزيد على الخمسة عشر من الكيلو مترات فى الساعة وبعد كل مائة متر تقطعها كان يسأل بعضنا بعضا اذا كنا سنستطيع مواصلة السفر وعند ذلك تعود بى الذاكرة الى كلمة الكولونيل الذى رأيته فى دار الحماية البريطانية فى عدن والذى قال الى اننى سأكون أول من يقوم بالسفر فى سيارة وقطع المسافة كلها بين عدن وصنعاء ولكن هاقد خابت الظنون وضاع كل أمل فى الفخر لأن هذه انما هى رحلات كان من الخير أن نقوم بها على ظهور الابل على الطريقة القديمة فى قافلة بطيئة أمينة .

وبعد أن نتخطى الحدود اليمنية بقليل ها نحن أولاء نقف لنأخذ ماء من بئر وقفت إلى جانبه ثلاث فتيات يملأن منه جرارهن الحمراء الكالحة وإذ يريننا يضحكن ويخفين عنا وجوههن وكانت كل حركة تبدو منهن تثير فى الجو رنينا معدنيا عظيما لأنهن كن من رقابهن إلى معاصمهن ومن خصورهن إلى كعوبهن كلهن أجراس من الحلى والأحجبة والتمائم . . . ترى هل هن جميلات ؟ فانهن بعد أن يتحدثن بما فيه الكفاية يدرن وجوههن نحونا فنرى وياللعجب ثلاثة وجوه قد طليت باللون الأصفر وهو لمسحوق اسمه « الهرد » يشبه الزعفران ولحسن الحظ أننا عندما اقتربنا من المدينة قابلنا نساء أخريات متحجبات وذلك لأن البدويات فى البلاد العربية هن وحدهن اللائى لايخفين وجوههن واللائى يخرجن سافرات فى الطرقات واذا كان السفور والغاء الحجاب معناهما التقدم والمدنية فما عسى يكون ذلك البلد الذى يكون فيه الريف والصحراء أكثر مدنية من المدن والبنادر ؟

هاهى ذى آثار الأقدام تتحسن تدريجيا ثم لا تلبث أن تظهر بوضوح وهاهو ذا الطريق يستقيم أمامنا (وسوف يكون الامام جد سعيد وسيسر كل السرور عندما أذكر له أن رجاله عرفوا كيف يمهدون الطريق فى بلادهم خيرا من رجال المحميات) ولكن يجب أن يكون من أندر الأشياء ظهور سيارة واحدة فى تلك المنطقة إذ أن الأهالى كانوا يجرون من القرى والدساكر ليتجمعوا فى طريقنا وكذلك كانت الماشية والابل تجفل خائفة مذعورة وكانت توجد فى بعض الوديان التى اخترقناها مراكز آهلة بالسكان وحقول يانعة خضراء على أن بعض الوديان الأخرى كانت تبدو كأنها الصحارى والقفار حيث لازرع ولا ضرع على أنها كانت كلها تحميها بعض التحصينات الأولية البسيطة .

وتعطى أشعه الشمس عند الغروب منظراً بديعا للاعشاب الكبيرة التى تخلع على أراضى البلاد ثوباً أنيقا من البهجة والجمال وعند أحد المعابر يثير الغبار جرى قطيع من الجمال تجفل خائفة وتقطع شربها وعند مرورنا بأحد الوديان نجد قطعاناً لاعد لها ولا حصر من القردة تهرب عند رؤيتنا

وتصرخ صراخا يصم الآذان وتتساق فوق الجبال وهى تحمل صغارها فوق ظهورها .

وأخيراً نصل إلى تعز بعد الغروب عند ما تختفى الدور فى عمق الصخور السمراء وخلف المساجد الناصعة البياض التى تمتص آخر أنوار النهار والتى تبدو مآذنها الرشيقة العالية كأنها معلقة فى الفضاء .

***

تعز . . . أو تاعز . . . أو قل ماشئت ! فان الجغرافيين أنفسهم لايعرفون حق المعرفة حقيقة اسم هذه المدينة اللطيفة الوادعة التى تبزغ وسط واد من الوديان الفيحاء فوق منحدرات الكتلة الجبلية المسماة « صبر » . وتعز لاتتحدث كثيراً عن نفسها ولا تدعو أحداً للتحدث عنها خارج حدود البلاد ولو أنها كانت مدى قرنين ونصف قرن من الزمان حاضرة بلاد اليمن فى أيام بنى غسان الذين فتحوا مكة فى سنة ١٢٣٧ ولا تزال هذه المدينة تحتفظ من ذلك العهد ببهجتها التى تشهد على عظمتها بما فيها من المساجد والقباب ولأحد هذه المساجد مئذنة عالية لطيفة تميل بعض الميل كأنها برج مدينة « بيزا » الشهير . وكما تشهد على ذلك أيضا حصونها المقامة فوق المرتفعات كأنها الأكاليل أو التيجان على أنه لم يبق أى فخر عند أبنائها وسكانها الطيبين الذين هم شعب هادىء وادع يعيش محتبساً فى واديها الضاحك الفياح دون ان يهتم أقل اهتمام بما يجرى فى أنحاء العالم الأخرى .

وإن ظهور غطاء للرأس ذى شكل أوروبى فى طرقات مدينة تعز يعتبر حادثاً لايخلو من أهمية لأن الأشخاص الذين لحوني لم يظهروا لأول مرة أقل اهتمام ولكنهم بمجرد أن تكاثر عددهم وأصبحوا عشرة هاهم أولاء يتشجعون ويأخذون فى تتبع خطوات الأجنبى وبعد قليل سرعان مايتزايد عدد هذا الجمع بالتدريج حتى يصبح جمهوراً غفيرا وبهذه الطريقة يتجمع نصف سكان المدينة الذين بمنتهى اللطف وبدون مضايقة الاجنبى يأخذون فى السير خلفه فى رياضاته وتنقلاته ويأخذون فى إبداء اعجابهم مثله بمناظر حوانيت السوق الفتانة كما لو كانوا يرونها للمرة الأولى . وفى هذه الحوانيت

تباع الأحذية والمراكيب والترجيلات المزركشة والحناء التى يخضب بها النساء اليمنيات أيديهن وأقدامهن كما تباع برادع الحمير والجمال ذات الألوان الزاهية والبخور المستكاوى والشعير والدخان والمر المكاوى والتبغ وكميات كبيرة من « القشر » الذى هو غلاف حبوب البن الذى يتخذ منه الأهلون شرابا لذيذا لاغنى لهم عنه . وإذا ما أسرع الأجنبى الخطى فانهم يحتذون حذوه وإذا ما وقف فجأة يجدهم كلهم من حوله ، وغنى عن البيان أنه لا توجد أية فائدة فى هذه العادة الغريبة للاجنبى الذى يدفعه حب الاستطلاع لتقصى الأشكال والعادات والذى يرغب فى رؤية كل شىء فى أقصر وقت ممكن .

ومما هو أقل سهولة وأعز منالا من ذلك — رؤية الأمير القوى الذى يحكم بلاد اليمن الجنوبية لأنه عادة لايقيم فى المدينة إذ جعل مقره فوق مرتفع « دار النصر » حيث يشرف منه على كل جزء من أجزاء مدينة تعز وللوصول الى مقره يقتضى الأمر مسيرة ساعة ونصف الساعة على متون البغال ولكن هل فى استطاعة الانسان أن يرغب عن معرفة شخصية عظيمة ذات أثر عظيم؟ ان السيد على الوزير هو الأمير الحقيقى الوحيد الموجود فى بلاد اليمن لأن غيره من الأمراء ماهم إلا قواد الجيش وهو منحدر من اسرة من اعرق الاسر فى البلاد العربية طالما أمدت شبه الجزيرة بالملوك والزعماء والقادة من عهد بعيد .

أخذت قافلتنا الصغيرة فى المسير بعد الفجر بقليل وكانت ترافقنا فى تلك الرحلة الطريفة الممتعة مفرزة من الجند بعضهم راكب والبعض الآخر راجل ونخرج من المدينة تاركين عن يميننا حى اليهود الحقير و نلازم الجبل صاعدين فى الحوض الجاف لاحد الوديان الذى تتدرج على جوانبه الحقول الصغيرة التى هى انموذج للزراعة الوطنية . وفى المناطق المقفرة على سفح التل تنتشر أعشاب كثيرة تبتدى بعدها حقول « القات » الشهيرة .

و« القات » هو شجرة متواضعة ولكنها ذات أهمية عظمى وأثر كبير فى حياة اليمن ومن السهل أن يقع فى الخطأ من أراد أن يحكم على هذه البلاد على أساس العوامل السياسية والاقتصادية التى من أهمها ثروة تربة اليمن الطبيعية وشخصية الامام الفريدة ودسائس الدول الاجنبية — بدون الاهتمام

بذلك النبات العجيب (أى القات) الذى يفتح أمام اليمنيين أبواب الفراديس الوهميـة والذى يفرض عليهم قواعد فريدة فى وجودها لان أهالى العربية السعيدة اعتادوا من عدة قرون مضت مضغ أوراقه ولهذه العادة قصة طريفة فقد لاحظ أحد رعاة الابل فى ذات يوم أن جماله بعد أن أكلت من تلك الاوراق اعترتها نشوة غريبة وأخذت فى الترنح والتمدد على الارض فى مرح وانشراح دون أن تشعر بالرغبة فى الحركة او القيام بأى عمل حتى أن ضربها بالهراوات الغليظة لم يكن يحرك منها ساكنا أو ليجعلها تقوم من مكانها وخيل أنها قد أصبحت عديمة الاحساس حتى ولا بالالم لانها بقيت فى الارض متمددة كأنها فى حلم لذيذ فدهش العربى وبقى برهة يفكر فى ذلك الامر الغريب ولم يلبث أن حذا حذوها وأكل هو أيضا من ذلك النبات ومن ذلك الوقت حرص الرعاة على ابعاد ابلهم عن أوراقه وأخذوا هم فى استعمالها واستأثروا هم بها دونها وهكذا عم السرور وانتشر الفرح والحبور فى كل القلوب . على أن طعم القات لايمكن تعريفه ويقال انه عنبرى فيه شىء من المرارة والاهالى يحبونه حب العبادة وينفقون فى سبيل الحصول عليه أكثر مما يصرفونه فى طعـامهم وشرابهم ويمضغون أوراقه كل يوم فى مختلف ساعات النهـار ويستمتعون بآثاره ومفعوله ولـكن التهيج الطبيعى والمخى الذى يحدث من القات يتبعه انحلال وانحطاط . ويقال كذلك ان الافراط فى تعاطيه يجلب النوم والانقباض وضيق الصدر ويكون سببا فى الضعف الجنسى قبل الاوان ويحدث غالبا لماضغى القات المدمنين عند ما يصلون إلى سن الخامسة والثلاثين أو الاربعين أن يصبحوا غير قادرين على ارضاء زوجاتهم .

واليمنيون لايستطيعون العيش بدون هذا النبات العجيب وبالطبع ليس كل القات الذى ينبت فى اليمن له نفس القيمة لان المتفننين فى تعاطيه والهواة يفضلون أوراق القات التى تنبت فوق منحدرات جبل « صبر » ويعتبر « قات » تعز ثروة عظيمة لزارعيه ونعيما مقيما لتلك الخلائق الماضغة . وقد حدث فى الربيع الماضى عندما فتح الامام يحيى حدود بلاده للتجارة مع عدن أن سافرت قافلة من تعز تحمل كمية عظيمة من القات ولـكن هذه القافلة

هوجمت فى سلطنة لحج ونهبت وعندما علم بهذا الرزء العظيم اليمنيون المقيمون فى عدن تكدروا كدرا شديدا ووقعوا فى ضيق شديد والم ممض ولم يتعزوا عن هذا المصاب حتى عندما رأوا الطائرات البريطانية التى أرسلت لتأديب أهالى القرى التى وقعت فيها الحادثة .

وأما المزروعات التى لها شكل المواح فانها تنتهى هناك حيث يصبح الجبل صحراء جرداء . وهنا بين كومتين هائلتين من الصخور ينفتح كهف عظيم عجيب يقوم على حراسته عدد كبير من الجنود ، هو خزائن الامير . وعلى قمة هذا التل العجيب الذى ينبت القات والذى يحرس كنوز على بن الوزير يقوم قصر منيف أبيض كثير التضاريس والتعاريج له نوافذ كبيرة تزينها مشربيات انيقة كما تقف من حول هذا الجبل مبان جريئة من الصخر تتوج قممها ابراج صغيرة من الحجارة السمراء . وفى الليل عندما يحظر على المواطنين ارتقاء هذه المرتفعات يتظاهر الجنود بالقيام بالحراسة عندما يلقون بصيحاتهم الطويلة من كل برج .

اما البهو الذى بقينا فيه فى انتظار الامير فلم يكن غير غرفة فسيحة الارجاء واطئة بيضاء قد فرش جانبها الخارجى بابسطة ووسائد من كل لون وكانت ترى من نوافذها المفتوحة على الفناء — الجند المتجمعة وبعد اشارة بالبورى يظهر ابن الوزير يسنده من ابطيه رجلان من رجال التشريفات واصحاب المقامات . ويتمتع ابن الوزير بصحة جيدة ولا يزال مستمرا فى انجاب الاولاد رغم نضوج سنه وهو ليس فى حاجة ولله الحمد لان يسنده احد فى تنقلاته ولكن حركة الرجلين كانت لها قيمة تشريفية ولا شىء غير ذلك .

اتجه الامير نحونا ومد يده بالسلام علينا وبعد مصافحتنا ابتسم للقائنا فظهرت ثناياه واسنانه الذهبية وكان يخفى خلف نظاراته السوداء عينا مكفوفة لان الجدرى حرمه من احدى عينيه كما حرمه ايضا من تولى عرش اليمن لان من الشروط اللازم توافرها فى المرشح للانتخاب لامامة اليمن سلامة الجسم .

وكان ابن الوزير يرتدى قميصا طويلا ازرق اللون ذا ازرار معدنية

مستديرة يضمه إلى جسمه حزام موشى بالذهب يشد الخنجر المقوس الذى تلتف حول مقبضه مسبحة من العنبر ويتدلى على كتفيه شال أبيض أطرافه موشاة بالذهب ويلبس على رأسة عمامة كبيرة رشق بين طياتها قلم من أقلام الحبر الأمريكانية فبدا كأنه نيشان صغير!

وحديث ابن الوزير لايخلو من أهمية ومتعة ولذة فهو رجل مثقف واسع الاطلاع له المام بكافة المسائل العامة لأنه يطالع باستمرار جرائد مصر وفلسطين والشام وقد قال لى ان اوروبا قلقة مضطربة وان ما يحدث فى بعض الدول لايبشر بالخير إلا اذا شاء الله أن يحفظ السلام . وقد تكلم معى عن اليمن وعما يحتويه من ثروة وعن مستقبله وكان يتحدث بهدوء وثقة وقال لى ان اليمن لايزال يحتفظ ببابه مغلقا واذا لم نقل « نعم » لكل من يطلبون الينا الحضور فلا يجب أن يخطر بالبال أننا قوم متعنتون أو أننا نكره الأجانب أو نحقد على الغرباء وما ذلك إلا لأن الكثيرين منهم لا يطمئنوننا على النفسية التى يأتون بها الينا وغالبا ما يكونون من الدساسين أو المهربين الخطرين الذين يجب أن نتقى شرهم .

وتقع تحت ادارة هذا الأمير كل الأراضى المتاخمة لمحميات عدن البريطانية وقد نجحت انجلترا فى عام ١٩٠٨ فى أن تعقد مع الباب العالى اتفاقية تضمن لها مزايا جغرافية هامة وقد وجدت هذه الاتفاقية مقاومة دائمة من الامام الذى يعارض فى شرعية الامتيازات التى منحها الترك وقد كان لهذه المعارضة أشكال مختلفة بعضها دموى كالذى حدث فى سنة ١٩٢٨ وانتهى باحتلال « الضالع » وقد تقرر فى سنة ١٩٣٤ تعيين لجنة انجليزية يمنية اجتمعت فى شهر اكتوبر من تلك السنة للمرة الأولى فى منطقة « ماويه » بين تعز والمسامير ولكن أعمالها لم تتقدم ولم تلبث أن أوقفت اجتماعاتها نظراً لحلول أعياد شهر رمضان على أن تعود إلى الاجتماع متى شاء الله . . وليس هناك ما يوجب العجلة على الاقل من الجانب اليمنى اذ أن مدة هذا الاتفاق أربعون عاما تبقى الحدود فى خلالها كما هى الآن ما لم يتم اتفاق آخر فى هذا الشأن .

وقد حدثنى الامير عن أشياء كثيرة بينما كان الخدم يحملون صحاف القهوة الحلوة اللذيذه الطعم التى كنا نشربها فى فناجين صغيرة متعددة الالوان وقد أعطانى خطابا مكتوبا باحرف عربية زخرفية لكى أحمله إلى الامام معنونا باسم « مولانا امير المؤمنين حفظه الله » وعندما نخرج من القصر الابيض نجد حرس على بن الوزير الكثير العدد متجمعا فى مربع وفى وسطهم الضباط العظام والسياف وكلهم مدجج بالسلاح والتمائم كما كانت تتجمع فى الافنية جمهرة من الموظفين وقد وقف الكتاب من فوق سطح بناء منخفض ينظرون الينا وكانت الابراج العالية ملأى بالعمائم والحراب .

وفى المساء أتوجه لاقوم بزيارة قصيره واجبة لعامل تعز فى مقره وهو مزخرف بزخارف مدهشة منقطعة النظير وهو الذى يقابل فيه العامل (وهو كالعمدة فى اليمن) ضيوفه . والعامل رجل ظريف فصيح اللسان له عيون خبيثة متحدثة سوداء وله خد منتفخ ولكن لا يخيل الى الناظر اليه انه يشكو او يتألم منه وقد قدم لى بالطبع قهوة وكوبا من الشراب بنفسجى اللون لم اضعه على فمى لئلا انتهك حرمة قوانين الضيافة الشرقية .

وليس العامل هو وحده كل من كان هناك بل كان معه أخواه وزميله المساعد الذى جاء من (شيريام) كما كان معه إيضا بعض المعاونين الآخرين كانت لهم كلهم خدود واشداق متورمة ! ترى هل كانوا كلهم مصابين بمرض فى اسنانهم ؟

. . . . أخيرا علمت من مضغهم أنهم كانوا يحتفظون فى أشداقهم بكمية من أوراق القات !

٢

فى مجاهل تهامة

وعندما ننحدر بسيارتنا متجهين شطر السهل والبحر نخترق منطقة من أكثر المناطق جمالا وأعظمها خصوبة فى هذا اليمن الصغير الذى هو بحق « حديقة بلاد العرب » . ومما هو مأثور أن الرحالة الساميين الذين هاجروا من بلاد مابين النهرين للبحث عن أراض جديدة جالوا كثيراً فى صحراء الجزيرة العربية الصخرية الرملية وجاسوا خلالها وأخذوا يضربون فيها شرقا وغربا حتى عثروا أخيراً هنا على أرضهم الموعودة التى فيها حطوا رحالهم وعاشوا فيها عيشة رغدة سعيدة وشيدوا لهم مدنا قوية مدهشة .

وفى الحق اننا اذا قارنا اليوم المناطق العربية الأخرى باليمن لوجدناها كلها أراض رملية قاحلة فقيرة تستدعى الشفقة وتستأهل الرثاء اذ تشاهد المملكة العربية السعودية بحسرة وألم فى السنوات الأخيرة نقصان دخلها من الحج الى مكة نقصانا كبيراً بينما تواجه حضرموت صعوبات كبيرة فى تصدير عقاقيرها التى هى من صنف يقل كثيرا عن عقاقير بلاد الهند الشرقية كما أن صيد اللؤلؤ على الشواطىء العربية لايزال يسبب الكثير من الضحايا البشرية دون أن يؤتى ثروة كبيرة للبلاد .

وان فى الأراضى اليمنية لمناظر نضرة بارعة الجمال واذا كانت تهامة التى هى ذلك السهل الذى يبلغ اتساعه نحو الأربعين من الكيلومترات والذى يمتد على طول شاطىء البحر الأحمر — هى أرض قاحلة محترقة فان المنطقة الجبلية الواسعة والهضاب الشاسعة التى يتكون منها أهم جزء فى البلاد يمتاز بمناخ عظيم وثروة تستلفت النظر لانها تغل كل مايمكن استغلاله بحيث تستطيع اليمن أن تتسع لاسكان أربعة أمثال سكانها الحاليين .

وهنا فى أراضى تعز يقتصر السكان على الاشتغال بالزراعة على طريقتهم القديمة المعهودة فى الاراضى التى يمكن ريها بسهولة وبدون أى عناء والتى

تعطى أحيانا ثلاثة محاصيل فى السنة كما تزرع فى الوديان المجاورة الخضر بكثرة جنونية كما أن النخيل تغمر مناظر الريف الفاتنة ولكن هنا أيضاً كما فى بلاد الشرق يدهش الانسان كل الدهشة للتعارض والتناقض العجيبين بين ثروة البلاد العظيمة وحالة السكان وبين حقول الذرة والقمح والشعير العظيمة وحقول الموز الفخمة اليانعة ومزروعات البن والقات الزاهرة وبساتين المانجو والباباز التى تعطى ثمارا مائية متجاورة الحد فى كثرتها ومنقطعة النظير فى حلاوتها — وبين القرى الحقيرة التعسة التى بنيت جدرانها من قش وطين .

والطريق عادة ان هو الا ممشى يكاد يكون مخطوطا يرتفع أحيانا وينخفض أحيانا وهو يضم فى طريقه كل تجويف وكل انحدار كما يستغرق كل مجرى من مجارى السيول على أن أجمل شطر فى الطريق بين تغر ومخا هو ذلك الجزء الذى يقابله المسافر فى وادى « فابل » (هكذا) الذى يمتد عدة كيلو مترات فى ممشى فخم من الخضرة اليانعة لان أشجار النخيل المغروسة على جانبيه ترسل فى الجو أغصانها الخضراء ولا يفوتنى أن أقول ان الطريق كثيراً مايدخل فى الوديان ويخترقها حتى لقد كانت المياه تصل إلى منتصف عجلات سيارتنا ولكن العمق كان متساوياً بفعل السيول وكان فى استطاعتنا أن نسير بسرعة تزيد على أية سرعة سرنا بها فى أية نقطة أخرى لولم تكن قد تجمعت فى مجرى ذلك الوادى كل فضلات القرويين وكانت السيارة كلما تقدمت الى الأمام تشتت الجمال والابقار والحمير والماعز والاغنام التى لا عد لها ولا حصر والتى كانت فى قفزاتها غير المنتظمة ترقص رقصات مضحكة باذيالها الكبيرة المكتنزة بالشحم وهى مئات ومئات من الماشية تقع فريسة الذعر والخوف من سيارتنا فتقفز أمامها فى ذلك النفق الذى لاتنتهى خضرته وهى تنثر المياه فى كل الجهات وتثير رذاذه فى الهواء .

وتتتابع الوديان وكأنى بها تتبارى فى احدى مسابقات الجمال ثم لاتلبث المزروعات الخضراء أن تأخذ فى الاغبرار وعندما نخرج الى السهل نجد أمامنا الأرض القاحلة وهى أرض محترقة ذات لون أصفر داكن وعندما يبتدىء هبوب الخماسين تأخذ الرمال فى الالتفاف فى الهواء حولنا وتسفع وجوهنا .

هذا وليس فى مقدور الرياح التخفيف من الحر الذى يشتد حتى فى قلب الشتاء فى تهامة وعند نزولنا من ارتفاع ١٨٠٠ متر من تعز يصبح أول اتصال لنا بالسهل المحرق معذبا لجسومنا ومحزنا لنفوسنا ولا تسمح لنا العاصفة الرملية الهوجاء الا بان نرى فنار « مخا » وذلك عندما نصبح على أبواب هذه المدينة الشهيرة .

* * *

ترى ماذا حدث لمدينة « مخا » الذائعة الصيت ؟ فانها اذا ماشوهدت من بعيد من البحر لاتزال تستطيع أن توهم المسافر بعظمتها لأنها الى الآن تحتفظ بمنظر مدينة جميلة مزدهرة ولكنه اذا ما اقترب منها وتغلغل فى طرقاتها تبدو كأنها أطلال قذرة أو كأنها سلسلة من الخرائب متصلة الحلقات وأما الحصون المشيدة على شواطئها التى تظهر فى الصور القديمة والتى تعطى المدينة منظراً حربياً فكلها متهدمة ومشوهة وتظهر من خلال ابراجها العظيمة المستديرة المدافع الحديدية القديمة يعلوها الصدأ وحتى مساجدها فانها قد غدت كلها متهدمة متداعية اللهم الا القليل منها التى لاتزال مآذنها العالية المنفردة قائمة على أقدامها وأما بيوتها فما هى الا صخور فوق صخور .

ولقد كانت « مخا » منذ مائة عام مدينة هامة عظيمة الشأن واسعة الحركة ولكن سرعان ماسلبتها كل من عدن والحديدة جانباً كبيرا من تجارتها وحركتها ونشاطها وهكذا بدأتدهورها السريع كما أنه فى سنة ١٩١١ اطلقت عليها السفن الحربية الايطالية قنابلها فدكت حصونها التى كانت تحتلها الجنود التركية فضلا عن أنها فى أثناء الحرب العظمى فى سنة ١٩١٥ تحملت وابلا من القنابل التى اصابتها بأضرار بالغة .ولقد وجدالملاحون البرتغاليون والانجليز الذين كانوا أول من تغلغل فى البحر الأحمر اذ ميناء (مخا) كانت تتركز فيه كل الحركة التجارية فى الساحل العربى ولكنها الآن اصبحت لايدخلها اكثر من الاربعين « سنبوكا » تأتى اليها فى كل شهر لشحن البن والجلود والزبد الذى تحمله الى ميناء عصب فى مستعمرة الارتيرية. واما اهل المدينة فيسكنون اكواخا صغيرة وعششا بنيت على هامش الاطلال القديمة

الى جانب حقول النخيل الكبيرة التى تحمى مدينة « مخا » وتقيها غائلة رمال الصحراء وكل ما فيها عدا ذلك ماهو الا قفر فى قفر . واما المبانى الاربعة او الخمسة التى لا تزال قائمة فيها فانها تبدو كأشباح فى احدى الجبانات ! !

على ان المبنى الوحيد الذى الذى له شكل الاشياء الحية هو « الفنار » ولكن نوره قد انطفأ من اكثر من عشرين عاما بأمر السلطات اليمنية ومما يؤثر ان احد ملوك اليمن الاقدمين واسمه « تبع برهة » قد استحق ان يطلق عليه اسم « رجل الفنارات » لانه هو الذى وضع اولى الاشارات المنيرة على طول شواطىء بلاده ولو انه لايوجد فى الوقت الحاضر اى نور يرشد الملاحين الذين يترددون على الشواطىء اليمنية التى اصبحت كثيرة المكامن بسبب صخورها الكثيرة واعماقها البعيدة .

ومن ذلك الوقت اصبح فنار « مخا » ماهو الا برج لانفع منه ولا فائدة فيه ولا تزال الشركة الاجنبية التى شيدته تستبقى فيه احد الحراس وهو شيخ يونانى لم يعرف طوال حياته عيشة غير العيشة التى يقضيها فى الابراج المنعزلة التى تضىء طرقات المحيطات والبحار وهو يحب عزلته هذه كما يحب مهنته ويقوم على حراسة الفنار بكل عناية والتفات فى انتظار انارته متى سمح له بذلك .

ودار هذا الناسك محفوظة هى الاخرى بعناية وهى ولو انها صغيرة الا انها ليست غير موفورة الكرامة اذ يوجد فى بهوها بيانو جميل يلمع خشبه كأنه المرآة ولكن لم تحاول اية يد ان تعزف عليه او ان تسمع انغامه وهكذا يظل البيانو القديم بدون صوت كما امسى الفنار بدون نور .

هذا وقد وقع لى حادث عادى جعلنى ابرح « مخا » على عجل فقد كنت انظر من اعلى احد المبانى القليلة الباقية على اقدامها الى قافلة بطيئة من الجمال المحملة باكياس البن تنتشر بين طرقات الخرائب الجانبية واذا بقادم يخبرنى بأن هناك خطراً يتهددنى اذا واصلت السفر عن طريق السهل ويطلب الى العودة الى عدن وحقيقة كانت الحكومة اليمنية قد ابدت موافقتها على رحلتى الى صنعاء ولكن كان يراد منى ان انزل فى الحديدة ومنها استأنف

السفر الى العاصمة وأن أسلك الطريق الذى يسلكه الاجانب القليلون الذين يسمح لهم بدخول اليمن ولكن لم اكن أعرف ذلك وقد علمت أخيرا بأن الامام لما علم بوصولى الى تعز تلطف بالغاء أمره الاول وسمح لى باختراق أراضى تهامة ولكنى الى هذه اللحظة لم أكن أنا ولا سلطات « مخا » على علم بما جرى .

ولقد قررت فى الحال أن آخذ فى السير الى الحديدة للوصول اليها فى أقرب وقت ممكن ووافق رجالى كلهم على ذلك ولكن الذى تضايق اكثر من غيره من هذا الحادث كان هو « عبد القادر » الذى لم يكن ليخطر له ببال انه من الممكن الاخلال بواجبات الضيافة بالزام احد الاجانب الذين سمح لهم بدخول البلاد بضرورة قطع رحلته والعودة من حيث أتى . وقد سره كثيرا أننى قررت مواصلة السفر باسرع مايمكن الى الحديدة ولكن هانحن أولاء بمجرد أن نصبح خارج مدينة « مخا » سرعان مانضل الطريق الذى لم يكن فى السهل الساحلى سوى شريط من الرمال اقتلعت منه الاعشاب وبعد لأى يظهر لنا ثانية فنسير على الجادة مدى بضعة كيلو مترات وفى هذه المرحلة أمكننا دفع السيارة والاندفاع بها بسرعة لكى لانبقى تحت رحمة مد البحر العالى ولكنا بعد قليل ندخل فى الارض الجرداء وتنغرس سيارتنا بأكملها فى الرمال ونحاول عبثاً اخراجها فلا نستطيع الى ذلك سبيلا وعندئذ أتقدم أنا واحمد نحو القرية التى لمحنا على بعد ثلاثة كيلو مترات قمم دورها وأكواخها التى تغطيها بعض أشجار الدوم وفيها نقابل خمسة عشر رجلا كلهم أنصاف عراة يلبسون فوق رءوسهم طرابيش غريبة ويحملون فى أيديهم سلات مضفورة وكانوا فى سيرهم يغزلون قطعاً من شباك الصيد كما تغزل النساء الجوارب وقد ساعدنا هؤلاء الصيادون المهرة بهمة ونخوة على افراغ السيارة وتخفيفها من الحقائب الثقيلة وعلى اخراجها من الرمال وهكذا استطعنا مواصلة سفرنا ولكنا عندما وصلنا الى « الخوخه » كان الجو قد اظلم وكان الليل قد ارخى سدوله .

ولقد كان وصولنا الى (الخوخة) سبباً فى اضطراب أهاليها وهياجهم فكانوا يهرعون الينا من عرائشهم المبنية من الطين وكانت وجوههم الناحلة المرهقة تبتسم اعجابا بنا وقد جرت نحونا أيضاً النساء وكن واضعات خمرهن الحمراء فوق وجوههن وكذلك الأطفال العراة وفى رقابهم حلقات من الحديد هى تمائم تقيهم شر الجن وشر حاسد اذا حسد . وكان هؤلاء الصغار يقفزون قفزات هائلة علامة الفرح والمرح والسرور .

وأخيراً هرع الينا « العامل » وهو مرتد « فوطة » (١) مخططة وقد وضع فوق رأسه قطعة من الخرقة ولكنه اذ علم أن هناك فى السيارة أحد الأجانب عاد ثانية الى داره وخرج الينا بعد قليل مرتديا حلة رمادية زرقاء وحراما أحمر تبرز منه قبضة خنجر مزركشة بالذهب وقد عرض على فى لطف تمضية الليل فى « الخوخه » فى داره ولما رأى اصرارى على مواصلة السفر أعطانى أحد جنود الحرس وعندئذ سرنا بعد أن شكرته ومعنا رجلان فوق « رفارف » السيارة هما واحمد والجندى وكلاهما كان معيناً لارشادنا الى طرق اليمن الصعبة ولكننا فى هذا الظلام الدامس سرعان ما نضل الطريق ونخرج عن الجادة وعندئذ نتجه نحو نور كان ينبعث من بعيد متخطين الكثير من الأحراش والكثبان الرملية حتى نصل إلى قرية مكونة من عدة أكواخ وقد سأل الجندى الذى لا يعرف السخرية ولا المزاح بعض الأهالى عن طريق السيارات وهاهم الأهالى يرشدوننا اليها ولكننا لا نكاد نقطع بعض الكيلومترات حتى ننحرف من جديد فى الأرض الجرداء وعندما نصل إلى القرية التالية ينادى الجندى جمعاً من الوطنيين ويختار من بينهم أربعة من أقواهم بنية ويكلفهم بالجرى على الطريق أمام السيارة وكان يوجه اليهم من آن لآخر بعض كلمات غامضة .

(ترى ماذا كان يقول لهم ؟... كان يقول انهم إذا لم يطيعوا فان العامل سوف يرسل اليهم جنوده)

---

(١) هذا هو لباس أهل المناطق الساحلية فى اليمن وذلك لشدة الحر

على أن هذا التهديد لم يكن فى محله ولم يصدر ما يستوجبه لأنهم كانوا يجرون دون أن يبدو عليهم أى ملل أو أى امتعاض وكان النور المنبعث من مصابيح السيارة ينير ظهورهم السمراء العارية ذات العضلات التى كان يتصبب منها العرق بسبب ما نالهم من الجهد والكلال من جريهم الطويل فى تلك الليلة الحارة وكانوا من وقت لآخر يديرون نحونا وجوههم لينظروا بدهشة طفلية — النور القوى الذى كان يتبعهم وكانوا يبتسمون فتبدو ثناياهم الشديدة البياض .

وبعد أن قطعنا نحو الاثنى عشر من الكيلومترات وصلنا الى قرية استبدلنا فيها أربعة رجال بدلا من الأربعة الذين كانوا معنا وسرنا على هذه الحال من قرية الى قرية — ونحن نضرب فى هذه الأرض الجرداء — فى أعقاب الرجال الذين كانوا يتجددون فى كل قرية حتى دخلنا فى منطقة المزروعات المحيطة بمدينة « زبيد » حيث كانت تظهر الطريق بجلاء بين حقول الذرة وعندئذ استغنينا عن أدلائنا وواصلنا السفر بمفردنا

وسرعان ما نرى على ضوء المصابيح برجين كبيرين قد برزا من حائط منخفض وقف أعلاها ثلاثة من الجند يلبسون فوق رؤسهم عمائم خضراء ولما نقترب منهم نسمع منهم صوتا يسألنا بقوله : من الذى فى العربة ؟ فيجيبه عبد القادر بخشونة ببعض كلمات لم أفهمها وسرعان ما يفتح الباب مصراعيه الثقيلين . وعندما أسأله عما قاله يقول : « قلت لهم أنه سيد عظيم »

* * *

أما مسألة وجود مأوى للغريب فى مدينة يمنية فمسألة لا تخلو من المشقة ولا سيما اذا كان ذلك فى الساعة العاشرة مساء والفندق هو مؤسسة لا حظ لها هناك حيث لا تزال الضيافة نوعا من البهجة والسرور للأهلين ولا تحتاج الى الفنادق الا البلاد التى أطفأت فيها المدينة نور المودة لا البلاد التى يكون فيها المسلم الطيب جد سعيد بان ينال شرف استقبال مسلم طيب آخر فى داره ليغمره بمودته ولطفه .

ولكن ترى ماذا يكون الحال اذا كان هذا الزائر من غير المؤمنين ؟

لقد قال لى عبد القادر أنه ليس أمامنا الا الذهاب الى العامل .

ولما أقفل مصراعا الباب الجنوبى لمدينة « زبيد » خلف أكتافنا اجتمع العسكر كلهم حولنا وأخذوا ينظرون الينا فى دهشة على أنوار مصابيحهم الحمراء وقد حمل كل منهم فى يده حزمة صغيرة من أوراق القات أخذ يمضغ فيها فى هدوء وطمأنينة ، ولكن بماذا كانوا يتمتمون عندما كانوا يقدمون على التكلم ؟ كانوا يباغتوننا بكلمة خاطفة صائحين : العامل — ثم يأخذون فى الجرى أمامنا مسرعين فى طرقات « زبيد » الضيقة المقفرة الملتوية وعندما يصلون إلى دار المواطن الأكبر كانوا يهجمون بجموعهم على السلم وهم يحدثون جلبة صاخبة وضوضاء جهنمية ثم أنهم بدون أن ينتظروا وصول رب البيت يدخلوننى فى « المفرج » ويساعدوننى على ارتقاء احدى الأرائك العالية المصنوعة من أعواد الصفصاف والتى يطلق عليها اسم « العنجريب » وكان « المفرج » مفروشا ببسط فارسية وضعت فوقها وسائد من الحرير صفت على طول الجدران ثم يجلسون صامتين فى شكل نصف دائرة أمامى وعيونهم متجهة نحوى وتفتر ثغورهم عن ابتساماتهم كما لو كانوا يريدون أن يفهمونى أنهم يكونون جد سعداء لو أتيح لهم القيام لى بأية خدمة ومع ذلك فانى أشعر بشىء من الارتياح والانشراح عندما أرى نهاية هذا الصمت عند وصول العامل .

« والمفرج » هو بهو الدار اليمنية ويتكون فى بعض الأحيان من مقصف فى منتصف الحديقة وأحياناً يكون كما هو هنا غرفة مرتفعة فوق سقف الدار نظيفة طلقة الهواء وباردة بين سطحين تحميهما الجدران العالية من النظرات الخبيثة ويصل مع العامل بعض الخدم فيضع أحدهم فوق المائدة نرجيلة مزركشة مصنوعة من النحاس الأصفر قد وشيت بزخارف لطيفة من الفضة وبها خرطوم أحمر من الجلد بالغ الطول مزين بشرائط وخطوط متعددة الألوان كما وضع « البورى » المصنوع من الصلصال والذى يفتح الى أعلى وقد ملىء بالدخان المزروع فى حضرموت والذى يصدر من المكلا فى كميات كبيرة الى الشرق الاسلامى ويضع الخادم بعناية كبيرة فوق التبغ قطعاً موقدة من

الفحم ولكن ترى لماذا يجب أن يتأكد من صلاحية النرجيلة بأخذه بعض أنفاس من الدخان منها قبل تقديمهما للضيف الأجنبى ؟ ولعل هذا هو ما ألجأنى إلى تدخين سجائر عدن الكريهة !!

وعامل « زبيد » رجل يبدو عليه الوقار والوجاهة وهو ذكى لطيف المعشر يصبغ لحيته بالحناء ويضع فوق أكتاف أولاده شيلاناً صغيرة غريبة بيضاء فيها نجوم زرقاء وقد تلطف وعرض على المبيت فى مفرجه ولكن ترى هل يوجد أى اعتراض فى أن أخرج فوق السطح سريرى السفرى وأنام عليه ؟

لم يكن هناك ما يمنع ذلك وكان فى استطاعتى أن أفعل مابدا لى ولكن ليكن ذلك فيما بعد . وقد فرشت أرضية « المفرج » بالحصير ووضعت فوق الحصير (صينية) من النحاس يبلغ طول قطرها نحو المترين وقد وضع الخدم فوق الصينية عدة صحون ملأى بالأرز واللحم والبيض والخضر والفاكهة .

ها هو ذا عبد القادر يتدارك الأمر ويعتذر بلباقة عن عدم التروى الذى أقابل به دعوة العامل لى بتناول الطعام معه ومع الموجودين ولكى يبرر حركتى هذه أخذ يقص الكثير من عوائد أهل الغرب الغريبة ثم ينتحى بى جانبا حيث آخذ فى تناول طعامى بمفردى بحيث كنت أرى وجوه الآكلين الجالسين حول الصينية الكبيرة والذين كانوا يظهرون ارتياحهم وسرورهم لكى يفهموا رب الدار بأن طعامه سائغ لذيذ وعندما ينصرفون وآخذ فى النوم كان مواء القطط يقطع على لذيذ رقادى الذى انتهى فى الصباح الباكر على تغريد الطيور التى اتخذت لها عشوشاً تحت سقف « المفرج »

وعند انبلاج الفجر كانت « زبيد » كلها قد استيقظت وكان الأهلون قد خرجوا من مساكنهم الواطئة وانتشروا فى طرقات السوق المسقوفة بالحصير يبتغون من فضل الله — ترى هل التبكير هو عادة أهل هذه المدينة القديمة العاملة الكادحة التى باركها النبى محمد والتى تحتوى على أحد المعاهد الاسلامية الكبيرة فى بلاد العرب ؟ — فى تلك الساعة المبكرة بدأت مئات المطارق الخشبية تدق دقات منتظمة فى جانب من المدينة فوق السنادين التى امتدت فوقها الأقمشة الزرقاء المراد صقلها وتلميعها لادخال البهجة والسرور

على نفوس النساء اليمنيات . على أن ثروة « زبيد » ليست وحـدها فى صنع اقمشتها الثمينة ولـكنها أيضاً فى حقولها العظيمة اليانعة التى تمتد حولها والتى يرويها فى فصل الأمطار أحد الوديان السخية فيكسبها الخصب بما يجلب اليها من كميات كبيرة من الطمى المصلح الذى تجرفه الميـاه من الاراضى المرتفعة عند اصطدامها بهـا . واذا ما خرج الانسان من المدينة متجهاً نحو الشمال فانه يسير عدة كيلو مترات وسط المزروعات الزاهرة والحقول اليانعة وعندما تبتدىء الأرض القاحلة الجرداء يدرك الانسان انه قد بلغ أرض « الزرانيق »

والزرانيق شوافع متمسكون بمذهبهم الشافعى الذى هو أحد المذاهب الاسلامية الأربعة بينما يتـكون معظم أهـالى اليمن من « الشيعة » ويطلق عليهم اسم « الزيود » ورئيسهم الأعلى هو الامام يحيى . والزرانيق لصوص وقطاع طرق مشهورون ولم يخضعوا للسلطات اليمنية فى صنعاء الا من بضع سنوات وعندما كانت اليمن ولاية عثمانية كانت بلادهم تتمتع بالاستقلال الذى احتفظت به بعد تحرير اليمن من النير التركى ولم تفقد هذا الاستقلال الا فى سنة ١٩٢٨ عنـدما جهز سيف الاسلام احمد أكبر أنجـال الامام يحيى حملة عسكرية ضدهم فى تهامه وانتصر عليهم بعد صراع دام سنتين عندما استسلمت قلعة « بيت الفقيه » . ولا تزال تشاهد الى الآن فى السهل الممتد بين زبيد والحديدة بقايا معسكرات الزرانيق وهى أكواخ فقدت سقوفها التى كانت مصنوعة من القش والتى أخذت تتداعى جدرانها الطينية الصغيرة المستديرة بفعل الأمطار وهى العـلامة الوحيدة الظاهرة والأثر الوحيد الذى تخلف عن المعارك التى لم يمض عليها زمن طويل ولـكن الخلاف المذهبى لا يزال يبقى الأحقاد كامنة فى بعض صدور الفريقين (١) . والزرانيق الملزمون بارسال عدد من الرهائن الى صنعاء والحديدة يخيل الآن انهم كفوا عن السلب والنهب للعودة الى الاتجـار والعمل فى الحقول ورئيسهم هو « الشيخ احمد

---

(١) انه لا يوجد الان ولا أثر له

الفتيني » . ويعيش هذا الزعيم آمنا مطمئنا فى قريته الساحلية « الطائف »
على أن هدوءه هذا فيه طعم التربص والانتظار (١)

وبيت الفقيه كـكل سكانها مدينة حربية . وهذه المدينة التى كانت فى
زمن ما محطة التجمع والتصدير التى كانت تحمل اليها كل حاصلات اليمن من
البن ليس بها الآن منه كميات هامة ولـكن قلعتها هى بناء ضخم ذو جدران
عالية وتقوم فوق جدرانها ابراج مستديرة مرتفعة ويرى مسجدها الـكبير
من بعيد بمئذنته البالغة الارتفاع وليس فيها عدا ذلك سوى بيوت واطئة
واكواخ ولا شيء غير ذلك .

وتقع عاصمة الزرانيق على سفح الجبل وهى نقطة تقابل لعدة طرق من
طرق القوافل وفى هذه المنطقة تتكسر على الهضبة عدة وديان ذات مزروعات
يانعة تعطى محصولات وفيرة ومن بيت الفقيه الى الحديدة تنعطف الطريق
ثانية نحو البحر فى خلال الاراضى الرملية الجرداء حيث يندر وجود القرى
وربما كان هذا هو الجزء الاكثر جدباً فى تهامة كلها الذى تحاول القوافل
ان تقطعه بمنتهى السرعة . وتنعكس أسنمة الابل من بعيد خلف الاحراش
الواطئة على الافق وتسير الواحدة تلو الأخرى على مسافات متساوية ببطء
وتتموج كما لو كانت تحاول تمثيـل حركة البحر على مسرح احد الملاهى
التمثيلية .

ويثير ضجيج محرك السيارة القافلة كلها فتقف الابل والحمير والماعز
مضطربة فى الانتظار ولـكنها عندما تصير السيارة على بعد العشرين قدما
منها تتفرق وتجرى مذعورة فى الأرض الجرداء ومن خلفها الرجال وقد
تـكون القافلة فى بعض الاحيان ذات اهمية اذ قد يكون فوق متون الابل
شيء أثمن بكثير من كيس من البن او اربعة صفائح من الـكيروسين اذ

---

(١) توفى هذا الشيخ من نحو ست سنوات

يكون احد الاغنياء العرب راكباً فوق بغلة بيضاء ذات بردعة جميلة وهو مسافر مع حريمه وعند اقتراب السيارة من القافلة يخلع أحد الخدم « فوطته » ويغطى بها رأس البغلة لكى لاتخاف كما يسرع الخدم الآخرون الى المحافظة على الابل بينما تخفى النساء وجوههن تحت الشيلان المتعددة الألوان .

اما كثبان تهامة الرملية فانها تثير موجاتها على اسوار الحديدة وتفتح لها طريقا بين « العرائش » المصنوعة من القش والتى يسكنها حمالو الميناء وأول تحية تقدمها الحديدة للزائر لاتسره كثيراً ولكنه بمجرد أن يدخل فى المساكن يجد أمامه جبانة فسيحة الارجاء ويخيل أن المقابر لاتسبب للعرب الحزن أو الانقباض اذ أنهم شيدوا حولها مساكنهم كما صفت مقاهيهم موائدها على الطريق الموصلة بين المدينة والقبور . وأما الحياة فى الحديدة التى تعتبر أظرف وأهم مدن اليمن فانها تنحصر فى طرقاتها المؤدية الى الميناء الصغير الذى لايمكن أن تدخله الا « السنابيك » وفى جمهرة مختلفه الاشكال بديعة فاتنة من التجار والهجانة وكبار الموظفين ومن الحمالين السود ومن النساء الرشيقات المبرقعات ومن البدويات المحجبات بالخرق وكل هؤلاء يجولون فى كل مكان وفى كل طريق فتبعث مناظرهم السرور والبهجة فى النفوس .

وتشرف على ميناء الحديدة أجمل قصور المدينة ذات البوابات المغربية اللطيفة والمشربيات الأنيقة وقد بنيت كل هذه القصور للموظفين الترك ولسكنى قناصل الدول الاجنبية فى العهد الذى كانت البلاد الاخرى تستطيع أن ترسل الى اليمن ممثليها . وقد تهدمت بعض هذه القصور فى أثناء الحرب العظمى بفعل القنابل التى ألقيت على الحديدة ولم ترفع أنقاضها كلها الى الآن .

وبعد أن نمر بميادين أخرى تليها جبانة أخرى نخرج الى الارض الجرداء وعندئذ نرى الطريق الموصل الى صنعاء يتجه نحو الشمال على طول شاطىء

البحر قبل أن ينثنى نحو جبال حراز ولكنا عندما نهم بالخروج من المدينة يقفل الجنود الطريق فى وجوهنا اذ يجب على مايلوح أن نحصل على جواز مرور من الحاكم .

ولكن ترى مافائدة تصريح الامام ؟

أما تصريح الامام فلا بأس به ولا بد منه اذ بدونه ما كان لى أن أحظى بالتحدث الى هؤلاء الجنود الظرفاء المخلصين فى طريق أية مدينة يمنية . ولكن اذا ماوصل الى الحديدة الأجنبى الذى يريد مواصلة السفر الى مدينة الزيديين المقدسة فانه يتحتم عليه أن يحصل على تصريح من الحاكم بعد موافقة تلغرافية من الملك عليه .

وإذن فما علينا الا الصبر والاستسلام لنتذوق مباهج الحديدة ومسراتها !!!

٣

بكرة . . . إن شاء الله !

لا بأس من الاقامة فى مدينة الحديدة فى قلب الشتاء . . . . اليس كذلك؟ ولم لا يكون ذلك ودرجة الحرارة فيها لاتنقص أبدا عن الخمسة والثلاثين ؟ وقد يحدث فى بعض الأحيان أن يشعر الانسان بانه يكاد يختنق من شدة حرها لان الريح الموسمية لاتثير فى الجو عند هبوبها إلا كتلامتراصة من الهواء اللافح الذى يشوى الوجوه وفى المساء لا يكون الجو محتملا إلا فى الخلاء وفى خارج المدينة ولكن اذا ما اقترب الانسان من دور السكنى فانه سرعان مايشعر بالحرارة التى تجمعت طول النهار والتى ليس من اليسير ان تتبدد أو تتفرق بسرعة وهى حرارة شديده قاسية .

ومن أحد الافنية يصر أحد الأبواق المزعجة المنكرة الصوت على اذاعة أنغام متقطعة غير منسجمة ولا متجانسة وألحان شاذة ناشزة . . . ترى ماهذا الذى اسمع ؟ ألم يقولوا لنا أن الآلات الموسيقية محرمة فى مملكة الامام كل التحريم ؟

نعم انها محرمة وممنوعة منعاً باتا اللهم الا ما كان منها مخصصاً للجيش : ولكن اليس فى استطاعة رياسة « الحرس » أن تتجنب هذا الشذوذ فى الالحان ؟ ليس ذلك شذوذا فى اللحن ولكنها مقطوعات متنوعة جريئة يثبت بها النافخون فى الأبواق صلاحيتهم ومقدرتهم وطول أنفاسهم

على أنه على أثر كل صوت يخرج من ذلك البوق كان يتردد غناء النسوة اللاتى يعملن فى فرز حبوب البن . وهؤلاء لسن عربيات صميمات بل هن من سلالة ذلك الجنس الذى ظهر فى البلاد اليمنية منذ عهد الغزو الحبشى وهن يسرن فى الطرقات ويخرجن الى الاسواق سافرات الوجوه ويرتدين أثوابا صنعت من أقمشة ذات ألوان زاهية ويقضين طول نهارهن مفترشات بلاط بيوت التصدير وأمامهن كومات عالية من حبوب البن وذلك لان هذه البضاعة

النفيسة التى تحملها القوافل من مكان انتاجها - والتى يستسيغها العالم باسره ويتلذذ بشربها يجب أن تمر قبل كل شىء من خلال ماكينات أولية بسيطة ذات صوت عال وضجيج يصم الآذان لتنظيفها وتخليصها مما يكون قد عاق بها من الغبار والحصى والقشور ثم بعد ذلك تسلم الى هؤلاء النسوة اللاتى يأخذن فى فرز الحبات واحدة بعد واحدة ويقمن بعملهن هذا فى هدوء وسكون وهن يغنين فى أثناء ذلك أغانيهن المشجية ليرفهن عن نفوسهن ولكى لا يشعرن بالسآمة والملل من هذا العمل المرهق ولكى يستجلبن النعاس الى جفون أطفالهن الصغار الذين يتمددون فوق كومات البن وهم يكادون يكونون عراة الاجسام .

ويوضع البن بداخل أكياس مزودجة نسجت من الياف النخيل هى « تعبئة » مخا التقليدية ثم تحمل هذه الأكياس الى الميناء بواسطة حمالين يتناول الواحد منهم قطعة من العملة النحاسية عن كل كيس يضعها فى فمه ويجرى . وفى الميناء ينتظر حمالون آخرون يدخلون فى المياه حتى صدورهم وهم يحملون هذه الأكياس ويلقون بها فى « السنابيك » وهم فى عملهم هذا يغنون أغانيهم ويرددون أهازيجهم المشجية . وواضح أنه اذا فرض الصمت على هؤلاء أو أولئك لما استطاع واحد منهم أن يحرك أصبعا واحد من أصابعه .

وكذلك يغنى المتسولون المكفوفون الذين يسيرون فى طابور وكل منهم واضع يده على كتف زميله الذى يسبقه من خلال الطرقات المزدحمة . ويغنى أيضا المجانين الخطرون الذين بسبب انعدام البيمارستانات فى اليمن يلتجئون اليها ويحبسون بين جدرانها - يتركون حيث يتسكعون فى طرقات « الحديدة » كما يشاءون كذلك ليس من الامور الهينة ان يخرج الناس للتجول فى طرقات الحديدة دائما لان تاجر الجلود لا يرى مانعا يمنعه من أشغال مائة متر مربع من أرض الميدان لنشر بضاعته وتجفيفها ثم يبقى الى جانبها وبيده هراوة طويلة لمطاردة الصقور والغربان التى تجذبها رائحة الدباغة فتأتى جماعات ووحدانا وترتطم بعضها ببعض وهى تنقض بشراهة على هذه البضاعة الكريهة الرائحة. كما أن تجار الحبوب ومصدريها يمدون الحصير على أرض الطريق ويأخدون فى تعبئة

الذرة والبن والسمسم والحناء التى يصدرونها الى الخارج بواسطة رجالهم
أما من أقام حفلة من حفلات العرس أو الختان فانه يجد الحرية اللازمة لاغلاق الطريق اغلاقا تاما فى الجزء الذى يقع امام داره ويقيم فيه بالسجاجيد والحصير بهوا فخما يستقبل فيه كل مدعويه .

أما السوق فان كل الطرق الموصلة اليها تكتسحها القوافل وتزدحم بالجمال والحمير والخيل والأغنام والماعز والأكياس المنتشرة على الأرض وبالقرب وصفائح البنزين والكيروسين وتكتظ بجمهرة كبيرة من التجار والحمالين والهجانة ورجال الجمارك وكل هؤلاء لهم أصوات وأحاديث لاتنقطع وجلبة وضوضاء لاتهدأ يباريهم فيها من المقاهى التى تفتح أبوابها حول السوق — الزبائن المتمددون فوق أسرة طويلة من الصفصاف أمام الموائد وأمامهم النرجيلات المزركشة يخرج منها الدخان فيملا الهواء

وفى الطرقات الملتوية القريبة من السوق يوجد دائما جمهور كثير الضجيج والجلبة فيجلس الباعة على أبواب حوانيتهم يشربون ويدخنون هم أيضا وبضاعتهم معروضة على مقاعد مستطيلة أمامهم ومن آن لاخر يحرك الواحد منهم دون أن يبرح مكانه ندبة طويلة يهش بها على بضاعته فيثير غيوما من الذباب وعندئذ يبدو البلح والعنب والخبز والسمسم والحلوى وقد رصت فى سلات جميلة متعددة الألوان .

أما جواز السفر إلى صنعاء فانه لايصل . . . واذن لابد من مقابلة حاكم المدينة للتحدث معه فى شأنه وللذهاب اليه كان يتحتم على أن أقطع طريقا رمليا طويلا تغوص فيه القدم حتى الكعب مدى نصف ساعة على الأقل لان دار الحكومة قد بنيت فى خارج المدينة على حدود الأرض الجرداء وأقيم حولها سور من القش وعلى بابها كشكان بنى أحدهما بالطوب وأقيم الثانى من حصير وقد وقف حول كل كشك من الكشكين ستة من العساكر كما علقت فى مدخل الدار على الجدران السلاسل والأغلال التى تقيد بها أقدام المسجونين .

وحاكم المدينة شخصية كبيرة محترمة وموظف ذو شأن عظيم وهو

ايضا أحد أفراد أسرة « الوزير » وابن عم أمير « تعز » وقد ولى هذا المنصب الخطير رغم حداثة سنه لأنه قام بخدمات جليلة لمليكه ولبلاده اذ تولى قيادة عدة حملات عسكرية منها الحملة على بلاد العسير ثم انه فى أثناء الخلاف الأخير بين الحجاز واليمن قام بالمحادثات والمفاوضات الدبلوماسية وأمضى نيابة عن اليمن « اتفاقية الطائف » التى وضعت حداً للخصومة بين القطرين العربيين ولقد رأيت على جدران البهو الذى استقبلنى فيه سيفاً ذهبياً معلقاً وهو الذى أهداه له الملك ابن السعود بعد توقيع « معاهدة الصداقة الاسلامية والاخوة العربية »

ولقد ولى ابن الوزير هذا المنصب على اثر عودته من الحجاز وسكن هذا القصر الفخم الذى كان الأمير فيصل آل سعود يتخذ منه حتى أيام قلائل مقراً لهيئة أركان حربه .

وعبد الله بن الوزير يفيض رقة ولطفاً وتبدو على محياه علائم الفطنة وأمارات الذكاء وقد استقبلنى استقبالا حافلا واهتم بالسؤال عن صحتى وعما صادفته فى رحلتى ثم أخذ يسألنى عن الأحوال فى أوربا وقدم لى فنجاناً من القهوة وكوباً من الشراب كما حدثنى حديثاً مستفيضاً عن أسرته وعن الأعمال التى اعتزم القيام بها فى الحديدة لحماية شواطئها من فعل البحر الذى يأكلها تدريجيا .

ولكن ألا يستطيع أن يسلمنى التصريح بمواصلة السفر الى صنعاء قبل موافقة الامام ؟

ترى متى تصل هذه الموافقة ؟

بكره . ان شاء الله . قال لى هذه العبارة وهو يبتسم ابتسامة عذبة بدت من خلال لحيته السوداء .

ومدينة الحديدة اذا قورنت بغيرها من المدن اليمنية كانت بلا شك أكبرها حركة وأعظمها نشاطا ويقيم فيها العدد القليل من الاجانب المقيمين فى اليمن . وعلى بعد بضع خطوات منها تتركز معظم تجارة اليمن الخارجية والعبارة التى تسيطر على كل المعاملات وتتردد فى كل الأحاديث هى دائما هذه :

« بكره . ان شاء الله ! » لان مصاعب الحياة وشدتها تذللها هذه الثقة فى غد يكون فيه الفرج بفضل الله ورعايته

وربما كان ذلك من فطرة عرب اليمن وطبعهم لان أوراق القات التى يمضغونها وسور القرآن التى لا يفتأون يرتلونها لما يثبت ويقوى هذه الفلسفة التى تسهل على الرؤساء والحكام اعمالهم . وحاكم الحديدة رجل فطن خبير بالامور يسعى جهده للاصلاح ويهتم كل الاهتمام بالمحافظة على الروح الدينية فى الشعب ويعمل على ذلك بكل الطرق التى يراها والتى يستطيعها وكما ان بطرس الاكبر قيصر روسيا ألزم الروسيين بحلق لحاهم عند ما شرع فى انهاض الشعب الروسى وأمر باعدام من لا يحلق لحيته كذلك فعل عبد الله بن الوزير اذ فرض على كل المواطنين أن يرسلوا حول ذقونهم كل ما منحهم الله من شعر كما أنه فى أوقات الصلوات الخمس يرسل عساكره للتجول فى الاسواق للتأكد من أن الجميع قد أجابوا دعوة المؤذن للصلاة .

ويدخل فى الحديدة من « القات » ما يكفى لادخال السرور والبهجة على نفوس ثلاثة أضعاف سكانها على أنه لا تدخلها قطرة واحدة من النبيذ أو من أى نوع آخر من المشروبات الروحية وهذا ما لا يضايق اليمنيين فى شيء ... ولكن ترى ماذا يكون حال الاوروبيين ؟

فى كل يوم يقف ممثلو الشركات الانجليزية التجارية ووكلاؤها من أعلى دورهم المطلة على البحر ويدورون بأعينهم فى الافق علهم يلمحون أية سفينة قادمة لان الاعمال التجارية وحركة المواصلات فى البحر الاحمر لا ينتظم لها حال ولا يوجد موعد محدد لوصول السفن أو قيامها بل ان المواعيد تتغير حسب ضرورات الشحن وتبعا لأحوال البحر والجو ومزاج القبطان وعندما تصل احدى السفن أمام ميناء الحديدة تلقى مرساها على بعد ثلاثة أميال من الشاطىء وللوصول اليها يجب على الانسان أن يقضى نصف نهار على ظهر احد السنابيك وعندئذ فقط يكون فى استطاعته تناول كوب من الويسكى اذا شاء .

ومما يلاحظ على هذا النظام الجاف ان أعضاء البعثة التجارية الروسية الذين يطلق عليهم العرب اسم « المسكوف » من المستطاع أن يتناول الانسان

فى دورهم الشاى الفاخر ويستمع الى شىء من ألحان رواية « كارمن » من اسطوانة فى جراموفون قديم أصبحت لكثرة استعمالها تنم عن حشرجة جاحدة لصوت ذلك المغنى المظلوم . ولا يبدو ان الروس يقومون فى اليمن بصفقات طيبة أو بأعمال تجارية واسعة النطاق أو وفيرة المكاسب لان منافسة اليابانيين الذين اجتاحوا أيضا بلاد العرب وغزوها بمنتوجاتهم الرخيصة الكريهة لا يمكن التغلب عليها بحال . وقد يحدث فى بعض الاحيان ان يلقى التاجر الروسى بعض الصعوبة فى تحصيل ثمن بضاعته . ومع كل فهم يبقون هنا بلا عمل ، ويحرمون أنفسهم من شرابهم « الفودكا » حيث يستبدلون برد الروسيا بجحيم الحديدة

وفى أثناء ذلك يزدحم العرب فى سوق القات ويأخذ الباعة فى التلويح بأعواده الرشيقة فى الهواء وهم يصيحون والناس من حولهم واقفون يبتسمون وقد أضحوا فى حالة نشوة بينما تكون السماء من فوقهم قد اصطبغت بلون الورد . وهذه هى الساعات التى يزدحم فيها المتسولون وهم الخبراء والعارفون وعلماء النفس البارعون : وفى مناظرهم ما يحزن وما يدعو للسخرية وما يضحك وما يبكى فى آن واحد فهناك من يطلب « الحسنة » دون أن يتفوه بكلمة واحدة ومنهم من يطلب المعونة والمساعدة وهو ينشد الاشعار ومنهم من يجلس فى ركن من أركان الطريق يستعطف الجمهور بمختلف الطرق والوسائل .

وأخيرا يأتى رجالى لاخبارى بوصول تصريح الامام فاجد أشداقهم جميعا منتفخة وهم يمضغون هدوء فاقول لهم : إذن ومتى نسافر؟

وعندئذ تطول الوجوه الثلاثة قليلا وتقول فى نفس واحد . بكره إن شاء الله !

***

تستدعى اصوات نفير السيارة كل أهالى «باجل» وتسترعى انتباههم ويغضب « مسعود عوض » غضباً شديداً . ترى ما هذه الطريقة لاخلاء الطريق ؟

وعندما تنحدر القوافل من الضباب والنجود تتخذ من « باجل » آخر مرحلة لها قبل أن تأخذ فى قطع المرحلة الطويلة فى الأراضى الجرداء المملوءة بعظام الجمال . وفى « باجل » يلتقى المسافر بالقوافل العائدة من « الحديدة » وهذه القرية التى تعيش من هذه الحركة التجارية هى قرية مضيافة كريمة فان الجمالة بمجرد دخولهم فى مساكنهم ينيخون ابلهم فى منتصف الطريق ويربطون عصيهم فى أفخاذها بقطع من الحبال وينزلون عنها احمالها ويتركون كل شىء فى مكانه كما لوكان هذا الطريق قد أصبح « سمسرة » (وهو الخان) ويذهبون إلى المقاهى حيث يأكلون أطباقا من الأرز ولحم الضأن ويدخنون فى نرجيلات ويشربون فناجين من « قشر » البن .

وفى الحق أنه يندر أن تمر سيارة من هذه الجهة وفى أثناء سيرنا فى الطريق الذى ينفرج بين الدور الواطئة والاكواخ الصغيرة نخاطر بالارتطام عند كل منحنى بكيس من أكياس البن أو بالاصطدام بالابل التى عند اقتراب السيارة منها يأخذ منها الذعر كل مأخذ وتهب واقفة على أقدامها كأنها أشباح عجيبة هائلة

وتقع « باجل » على حدود تهامه على سفح الجبل وللوصول إليها من الحديدة يسير المسافر بمحاذاة البحر مسافة طويلة مارا بعدة واحات صغيرة ملأى بالنخيل وأشجار الدوم (وهى نخيل أخرى تنمو على شريط رفيع من الأرض ويخيل للرائى أنها تنبت من مياه البحر الأحمر) ثم ينعطف بعد ذلك نحو الشرق ويقطع السهل الرملى الذى تنتشر عليه بعض الأعشاب القصيرة . ثم تعلو كثبان الرمل شيئا فشيئاً ثم تبدو أكثر ارتفاعا عندما نقترب من « باجل » وسرعان ما نجد بعد هذه القرية أول ساحة من ساحات التلال ثم نلاحظ بعد ذلك أولى التحصينات .

وتبتدىء اليمن الخضراء الحقيقية بالجبال ولكن ما عسى تكون قيمة تهامة الجرداء اذا ما قيست بهذه الهضاب الغنية الخصبة الزاهرة وأى شأن لسكان تلك الأرض القاحلة مع سكان الجبال الخضراء اليانعة ؟ أما سكان تهامة فهم من جنس أقل عراقة وصفاء ويدينون بمذهب اسلامى آخر غير مذهب اليمنيين سكان الجبال وكل البلاد المنخفضة قد فتحت من عهد قريب اذ

احتلت جيوش صنعاء فى سنة ١٩٢٥ مدينة الحديدة وسهلها حتى بلدة « ميدى » وفى سنة ١٩٢٩ تمكنت من اخضاع قبائل الزرانيق وأخذت من أبناء رؤسائها رهائن . وموطن اليمنيين انما هو فوق هذه الجبال الخصبة المنيعة البعيدة المنال حتى أن ملكهم لم يحاول قط الذهاب لرؤية البحر أو لزيارة المدن الساحلية ولم ير ضرورة لانارة الفنارات المنشأة على سواحل اليمن

أما الوديان المؤدية إلى النجود وعلى الأخص الوديان التى يخترقها الطريق المؤدى إلى العاصمة فانها سرعان ما تبدو بجلاء وتظهر طبيعة البلاد على حقيقتها وتنم عما بها من ثروة زراعية هائلة وخير وفير وأول ما يدخل الانسان بين هذه النجود يرى حصنا شاهق البنيان شيد فوق أحد التلال يسد الوادى سداً هو حصن «باجل» الذى يلتهب بنيانه المقام من الحجارة الحمراء ويتوهج عند اقتراب الغروب وعندما يغمر الظل هذا الوادى السعيد .

ويطول الطريق بين هذه الساحات الجبلية التى تزداد ارتفاعا وصلابة ثم يتقدم الانسان بعد ذلك فى الرمال بين حشائش وأحراش وأرض ليس بها من الأشجار غير اللبخ الباسق ولكنه سرعان ما تقع عيناه على الوديان الأنيقة الكثيرة والخضرة اليانعة والمياه الجارية فى كل مكان التى تخفف من حدة تلك المناظر الرملية الصفراء ولا تلبث أن تظهر من فوق الصخور الناتئة أبنية عالية قاسية كلها مغلقة كأنها الحصون التى لها لون الجبل كما تظهر أرصفة وعرة قدت من الصخر تنفتح فيها بعض الطرق والمنافذ حتى ليخيل للرائى أنها من الكوات التى تطلق منها الأسلحة النارية فى بعض القلاع وما هذه إلا بيوت لها ذلك اللون الحربى العظيم تبدو كأنها أبراج للحرس أو حصون للدفاع حتى ليحسب الانسان أنه قد شيدها شعب من المردة والجان لحراسة مدخل محراب هيكل قدسى عجيب .

ويسير الانسان تحت هذه الابنية العابسة الصماء التى تشرف على الطريق وعند ما تغرب الشمس ويرخى الليل سدوله يخيل أنها تفتح عيونها القلقة الحائرة العديدة الثقة التى تتبع المسافر بنظراتها وترقبه أنى سار .

على أن القرى فى بطون الوديان أكثر بساطة وأكثر سكانا وعمرانا فقرية « عبال » التى نقف فيها لقضاء ليلتنا هى أشبه شىء بقرية من القرى الأفريقية منها إلى قريه اسيوية وكذلك أهلها يزيد لون بشرتهم [سمرة عن لون بشرة من رأيناهم من سكان البلاد ويتكلم سكانها لغة عامية لم يفهمها أحد من رجالنا ويسير أطفالها فى الطريق حفاة الاقدام . وأجمل مساكن « عبال » هو « عريش » لهجدران خشنة جافة طليت من الداخل بالجير وسقفت بالقش ويقدم فى نظير ثلاثة ريالات فى الليلة الواحـدة للمسافرين الذين يضطرون للمبيت فى القرية ولـكننا بمجرد أن نرش أرضيته بقليل من سائل قاتل للحشرات لا نلبث أن نشهدو الدهشة آخذة منا كل ماخذ زحفا سريعا خاطفا غـير منتظم لجيوش جرارة من الهوام الصغيرة تتسابق فوق الجدران وعندما نرش من هذا السائل على الجدران سرعان ما يسود لون القوائم والأغصان التى يستند عليها قش السقف وهذا ما يدعو عبد القادر إلى حمل سريرى السفرى الصغير إلى الهواء الطلق بعد أن يغرس فى الأرض ساريتين ينصب غليهما الـكلة (الناموسية)

وفى وسط هذا الظلام الدامس ينفرد مضجعى الأبيض فى الفضاء ويبدو كأنه احد الأضرحة التى يقيم حولها اليمنيون الستور والأعلام الصغيرة الخضراء والحمراء والبيضاء . فهل ترى يحدث أننى عندما أستيقظ فى الصباح أجد على حين بغتة حولى جماعة من البدو يصلون ويتبركون حول سريرى وعندما يرونى أنهض من فراشى تأخذهم الدهشة من هذا البعث الزائف وينتشرون فى الأرض ليبشروا قومهم بهذه المعجزة الجديدة ؟

أما الآن فلاتوجد إلا الـكلاب الضالة هى التى تقترب منى ذاهلة لتفحصنى ولما يخرج الأهالى بعد من أكواخهم الحقيرة وعندما يخرجون فى الطرق أرى رجالا أنصاف عراة كما أرى النساء بقبعاتهن المخروطة الشكل يتحركن أمام النيران الموقدة واسمع من حولى أصوات منـكرة وصرخات غير مفهومة . ترى لم هذه الـكثرة فى العبارات فى أحاديث أهل « عبال » ؟

أما رجالى فلا يعلم إلا الله أين ذهبوا وأما أنا فاشهد منظرا محزنا اذ تقع مشادة عنيفة بين امرأتين من نساء القرية وهنا أسمع صرخات تصم الآذان

وعبارات متقطعة تنتهى كل منها بعلامة من علامات الاستفهام ولا تلبث هذه الأصوات أن ترتفع وهذه النغمات ان تعلو علواً كبيراً ويظهر فيها التهديد والوعيد ترى هل تتخلص المتخاصمتان آخر الأمر مما فوق رأسيهما لتمسك كل منها بشعر الأخرى ؟

ولكن هاهى ذى المشاجرة تهدأ على حين غفلة وتنتهى المناقشات ثم لاتلبث القرية أن يسودها صمت عميق وتخرس كل الألسنة فلا تسمع إلا غناء الصراصير ونقيق الضفادع يتردد من كل الأنحاء ثم نسمع نباح الكلاب ثم استغاثة انسان ثم لا نلبث أن نرى أسنمة ابل تسير من خلف السور وعندئذ ترتفع الاصوات من جديد حول القافلة العائدة ثم يسود الصمت مرة ثانية ويقطع هذا السكون بكاء أحد الأطفال وهو الصوت البشرى الوحيد الذى يمكن فهمه وتمييزه بين أصوات هذه الخلائق الجامحة .

* * *

كان طريق صنعاء القديم المؤدى الى « عبال » يسير فى اتجاه « الحجيلة » وكان يقطعه المسافرون على متون البغال فى صعودهم فى جبال « مناخة » أما الطريق الجديد فهو أطول قليلا ولكن من الممكن ان تسير فيه السيارات والعربات ووسائل النقل الميكانيكية ولكن مما لاشك فيه أنه مما يحزن حقا أن يضطر الانسان إلى عدم دخول مدينة «مناخة» ذات الشهرة العظيمة والمناظر الخلابة ولكن مما يهون ذلك اجتناب دخول سوق «الخميس» الذى هو المحل المختار للبراغيث اليمنية . على أن هذا الطريق يحتوى أيضا على أشياء فاتنة جذابة تسر النفس ومناظر تبهر النظر على أنه لا يخلو من بعض المضايقات وفى كل حقل من هذه الحقول تظهر تكعيبات العنب فى صفوف منتظمة طويلة لا آخر لها يقف الحراس من فوقها يلقون من آن الآخر بصيحاتهم المزعجة لابعاد الطيور والعصافير الشرهة عنها

ونجد فى مدينة «العبيد» جمهرة كبيرة من الخلائق الصاخبة قد اجتمعت بين دورها الصغيرة المشيدة بالاحجار الخشنة. انه يوم السوق وفيه يأتى

رجال قبائل المنطقة للمقايضة على غنمهم وماعزهم بما يحتاجون إليه من ملح وكيروسين وأحذية وفوط وما الى ذلك . واذا ما سار الانسان بعد ذلك يجد نفسه قد دخل فى واد غير ذى زرع ويكون مسيرنا فيه مدعاة لهرب قبيلة صغيرة من القردة عندما تشعر بأنها قد أصبحت فى مأمن منا فوق الجبل تسمعنا بصرخاتها الغاضبة كل ما تكنه من حقد وكراهية للمدنية الميكانية . وقد ضايقت سيارتنا فى طرقات اليمن كثيرا من الناس من جمالة ورعاة أغنام ومسافرين وبدو رحاله وفلاحين وتجار لم يظهر احد منهم لنا استياءه ولم يفتح فمه بكلمة احتجاج سوى القردة « الماكاكى » التى تسكن وادى « السلفية » . والمناطق التى تسكنها تلك الوحوش الهائجة يلطف منـاخها و يجمل مناظرها ماينبت فيها من ثمر عجيب يقال له « أصبع مريم » . ترى هل يوجد نبات له شكل أدعى للضحك والسخرية من هذا النبات ؟ ان له لجزعا عظيما جديرا بشجرة هائلة ذات ساق عالية ولـكن هذا الجزع سرعان ما يصغر حتى أنه بعد ارتفاع متر واحد ينقبض ويتضاءل إلى أصغر حجم وتحمل هذه الشجرة المخروطة الشكل قليلا من الأغصان الدقيقة العارية من الاوراق تنتشر فوقها زهرات صغيرة حمراء تحملها أوراق دقيقة .

ها نحن اولاء نرى على الطريق من ناحية الوادى الاخرى شيئا يتصاعد منه الدخان له بريق يتقدم نحونا ترى ما هذا الذى نرى وما عسى أن يكون ؟ إنه ويا للهول سيارة أخرى وهى أول سيارة نقابلها فى طريقنا بعد أن تركنا أرض عدن . ترى أيكون فى استطاعتى أن أعرف إلى أى جانب من جانبى الطريق يجب المسير فى الطريق اليمنية ؟ حتى ولا مسعود عوض يعرف ذلك وهاهوذا يمشى فى منتصف الطريق وهو على استعداد للميل إلى هذه الناحية أو تلك حسب ما تقتضيه الظروف وهاهوذا السائق الآخر يحذو حذوه ويتقدم نحونا بسيارته الضخمة وهو أثناء مسيره ينفخ فى بوقها بغضب وجنون نفخا متواصلا ومسعود هو الآخر لا يوفر بوق سـيارته ويبدو على وجهه الملل والغضب ويكاد يتميز من الغيظ لان السيارتين أصبحنا على مسافة خمسين مترا من بعضهما ولـكن ها نحن اولاء نرى السيارة الأخرى تنطوى على حين بغتة

وتنعطف فى داخل الحقول التى على أحد جانبي الطريق وهى تشرئب بمقدمتها الى الاعلى ثم لا تلبث إلى أن تعود سيرتها الاولى وتستأنف طريقها بعد أن نكون قد مضينا فى طريقنا بسلام .

وفى الظهر نصل إلى « حمام على » وهو المكان المشهور بمياهه المعدنية وبما أنشىء فيه من الحمامات التى يقصدها الناس من كافة أنحاء اليمن فى الفصل المناسب وتتجمع مياه الينابيع فى هذه المؤسسة التى هى مبنى هائل طليت جدرانه باللون الابيض وتبدو واضحة تمام الوضوح فوق الصخور السمراء التى يذهب اليها المرضى بعد الاستحمام للاختباء تحت الارض بقصد الاعتكاف قليلا فى كهوفها القديمة المفحورة فى الجبل كأنها خلايا النحل .

بعد ذلك نسير طويلا فى وديان « الحرس » لالشىء الا لكسب مرحلة من المراحل وتوفير مسافة من الطريق لان طريق السيارات الى صنعاء يسير فى محاذاة المرتفعات وقد وجد البناءون اليمنيون كثيرا من المصاعب منذ سنين فى شق الصخور وقطعها وفى هذه المرحله نضيع من الوقت ما لايقل عما قضيناه فى قطع باقى الطريق .

ويسير الطريق على جوانب جبال شاهقة تتخللها وديان يانعة وتتناثر على جوانبها قرى كثيرة بها مآذن صغيرة تتجمع فوق قممها وكم كان يسرنا أن نقطع هذا الطريق لو لم نضطر للنزول عدة مرات من العربة لدفعها لان عجلاتها كانت تدور « على نفسها » فى الحصى والرمال دون أن تستطيع التقدم .

ولكن ها نحن أولاء بعد جهود مضنية ومتاعب نلاقيها من الرمال المتراكمة ومن محرك السيارة نصل أخيرا إلى رأس ممر صنعاء ولعمرى ان عظمة منظر هذه الهضاب اليانعة لتنسى الانسان كل تعب وعناء وهذا هو مايدعو اليمنيين للافتخار والمباهاة بجبالهم التى يعيشون فيها فى ربيع أبدى محبوب والتى تحبيهم أرضها الطيبة الخصبة بكرم وسخاء فهم يروون حقولهم بجمع مياه الأمطار التى تنهمر فوق المنحدرات ويحيطونها بسدود صغيرة ويغترفون من تلك الطبنة المترعة بواسطة آبارهم النموذجية ويحفرون لها صهاريج عظيمة تعود بالذاكرة إلى الأساطير القديمة التى يفخر بها الرى فى هـذه البلاد التى عرفت

فى العهود السابقة على التاريخ كيف تبنى سد « مارب » الشهير المنقطع النظير.

ثم تتوالى النجود بعد ذلك واحدا بعد واحد فى أشكال مخروطة لانهاية لها تفصلها عن بعضها سلاسل جبال منخفضة ثم تظهر تدريجيا مبانى القرى باردة عابسة فى أول الأمر ثم لاتلبث أن تصير أنيقة زاهرة ونقابل على الطريق وفوق الجبال خلائق يكثر عددها كلما تقدمنا فى مسيرنا هم عرب المدينة وكلهم يرتدون أقمصة من الصوف اللين ذى الزغب الكثير ورجال قبائل يلبسون ملابس من جلود الماعز وبدو يتغطون بالأسمال .

وأخيرا على سفح جبل « نقم » تظهر صنعاء الزاهرة بسورها الطينى الكبير وقصورها الشاهقة الأنيقة وما ذنها الستين ! !

٤

صنعاء عرش اليمن(١)

كان على الأجنبى فى العصور الماضية إذا ماوصل إلى العاصمة اليمنية أن يتجه نحو « باب الحقل » دون غيره من أبواب المدينة الثمانية المفتوحة فى سور صنعاء وعندما كان يدق على هذا الباب كانت تفتح احدى الكوات الصغيرة وكان عليه اذ ذاك أن يقدم للحراس الواقفين من ورائها عريضة يذكر فيها شيئا عن شخصيته ويلتمس فيها الاذن بالدخول وكانت هذه العريضة تحمل الى حاكم المدينة الذى كان بعد الاطلاع عليها اما أن يسمح لهذا الأجنبى بالمثول فى حضرته لبيان الأسباب التى دعته للحضور أو يأمر باغلاق الكوة فى وجهه بقسوة وخشونة وبدون شفقة ولا رحمة .

على أن اليمنيين أصبحوا مع مرور الزمن أكثر تسامحا مع الأجانب ومع ذلك فقد كان هذا التقدم بطيئا ففى عام ١٧٦١ وصل الى سوار صنعاء المسيو نيبوهر وزملاؤه أعضاء البعثة التى أرسلها ملك الدانيمارك الى بلاد العرب واضطروا للنزول من فوق بغالهم ودخول مدينة العلويين راجلين ولكن هذه المعاملة القاسية المذلة قد أصبحت اليوم وقفا على الأهالى اليهود(٢) دون غيرهم وقد فتحت أبواب المدينة كلها للداخلين سوى الباب الموصل الى القلعة ولقد كان دخولنا الى المدينة من « باب اليمن » الذى هو أجمل وأهم أبواب صنعاء وهو كثير الحركة والجلبة يعج دائما بالداخلين والخارجين وينتهى عنده طريق القوافل الكبير الذى يخترق من تعز واب ويريم وذمار ومعبر — معظم الهضاب اليمنية الغنية المزدحمة ومنه يمر اناس من كل نوع هم شعب مختلف الاشكال والألوان من بدو ومن حضر ومن عساكر وحماله ومتعطلين

---

(١) ترتفع صنعاء عن سطح البحر بالفين وأربعمائة متر

(٢) نلاحظ أن اليهود فى اليمن يعاملون معاملة مرضية وفق الشريعة الغراء ومعلوم أن الشريعة المحمدية قد اوصت بأهل الكتاب عامة

ويقطع «باب اليمن» المحصور بين برجين هائلين نطاق السور العظيم الذى يحيط بالمدينة وقد شيد هذين البرجين(١) السلطان صلاح الدين الأيوبى باحجار وردية وخضراء وغبراء وزانهما بهذه الألوان الجميلة الزاهية ويقال ان «السلم الموسيقى» وجد بين بقايا «السد» الذى يكسب مملكة سبأ تلك الشهرة العظيمة والثروة الأثرية الكبيرة والذى أخذت منه هذه الأحجار . ولهذا الباب مصراعان جميلان حفرت عليهما نقوش جميلة تأخذ بالألباب ولكن ليس فى استطاعة أحد الوقوف أمامهما طويلا لتأملهما وفحصهما بما يستحقان من العناية اذ جرت العادة بأن تسمر أيدى اللصوص الذين يضبطون متلبسين بالسرقة على جوانبهما

وبعد أن نتخطى عتبة هذا الباب نصبح فى قلب صنعاء وعندئذ نشعر بأن كل شىء فى هذه المدينة العظيمة قد صنع لادهاشنا وتحيير أفكارنا اذ خيل الينا أننا نعيش فى حلم من أحلام الطفولة المعسولة اللذيذة وتعود بنا الذاكرة الى تلك الأيام التى كنا لانزال فيها أطفالا نتخيل مدينة الخرافات والأساطير الغريبة التى كانوا يقصون علينا قصصها ويسهبون لنا فى أوصافها قبل أن يعقد النوم جفوننا فمن قصور غريبة فخمة الى دور ظريفة كلعب الأطفال عملت فى زخرفتها وتنميقها يد عامل صناع من صانعى الحلوى الى قباب جميلة ومآذن رشيقة عالية تطاول السماء الى ميادين فسيحة الأرجاء استعملت أفنية وأسواقا وخانات الى شوارع وطرقات تنساب بين الأبنية كالحيات بدون اتجاه معين وبغير منطق معقول الى حوانيت ضيقة تنبعث منها راوئح العطور والتوابل ويتلألأ فيها بريق المعادن الثمينة والأحجار الكريمة . أليست هذه كلها مناظر ألف ليلة وليلة ؟

وكذلك الجمهور الذى يتجول فى الطرقات فانه يخيل الينا أنه خرج من صفحات قصة من القصص الغريبة الشائقة اذ يمر فوق صهوات جياد «الجوف» العربية الأصيلة أمراء عظام وحكام كبار يرتدون الملابس الفضفاضة البيضاء وعلى اكتافهم الكوفيات والشيلان الخضراء أو الحمراء

---

(٢) هذا مناف للحقيقة والواقع

ومن ورائهم حراسهم وخفرهم وغلمانهم . كما تمر نساء مبرقعات وبدويات سافرات عليهن جاكتات صنعت من الجلود تبدو منها صدورهن العارية وموظفون من موظفى الدولة بعمائمهم البيضاء الكبيرة يصحبهم خدمهم يحملون لهم النرجيلات اللامعة البراقة . ويمر رجال القبائل ذوو الوجوه الزيتونية الشاحبة وهم أيضاً مسلحون بخناجر مقوسة شدت الى بطونهم فى أحزمة من الجلد ثم يهود نحاف الجسوم صفر الوجوه تبدو عليهم علائم الحزن والغم وقد تدلت لحاهم الطويلة حول أصداغهم ثم تمر كذلك ارتال بطيئة طويلة من الابل والخيل والحمير وقطعان غير متنظمة من الغنم والماعز وغير ذلك مما لا يحصيه عد

وقد يحدث أيضاً فى اثناء السفر فى بلاد مدهشة مثل هذه البلاد التى يخيل أن التاريخ فيها مرتبط تمام الارتباط بالأساطير والخرافات أن يلتقى الانسان باشياء ويرى مناظر كان يعتقد أنها قد اختفت الى الأبد بفعل مرور الزمن تجعله يشعر بأسف غريب يهون معه الاحساس بالغربة والحنين الى الوطن ولعمرى ان أهالى اليمن لعلى حق فى زهوهم وافتخارهم بعاصمتهم الظريفة التى يسمونها « عرش اليمن » . ألم يؤسسها قحطان الذى أعطى أكبر أبنائه يعرب للشعب العربى اسمه ولغته ؟ وترجع أصول صنعاء للاساطير كما هو مقرر لكل مدينة تفخر بأساطيرها القديمة ومدنيتها الغابرة وتاريخها الماضى المجيد ولما ارتفعت صنعاء الى مرتبة المدن الكبيرة وأصبحت عاصمة البلاد بعد تدمير مدينة « مارب » وتفرق شمل آل سبأ ظلت مدى الفى عام ميداناً للحروب ومركزاً للمنازعات التى احتدمت فى تلك البلاد التى لجمالها ولكونها أغنى بقاع الجزيرة العربية كلها كانت مثاراً لاطماع الطامعين واجتذبت اليها انظار الغزاة والفاتحين من كل صوب ومن كل بقعة من بقاع الأرض .

ولقد كان الحصار الأخير الذى ضرب حول صنعاء فى الأيام الأخيرة شيئا قريب العهد بعد تلك الفترة التى كان فيها الامام الحالى يعمل بكل ما استطاع من جهد لتخليص وطنه من براثن الاستعمار العثمانى . ويبدو للناظر أن صنعاء فد احتفظت بشكلها القديم كاملا ذلك الشكل الذى كان

لها فى عهد الخلفاء العباسيين عند ما كانت رائعة الجمال وكان شعراؤها يتغنون بجمال حدائقها الغناء ومياهها الجارية وبما فيها من المباهج والمناظر التى تبهر العيون وتأخذ بالألباب وكانوا يرون انها فريدة فى محاسنها لا مثيل لها فى جمالها ولا يعرفها ويقدرها الا من أتيح له دخولها والعيش فى ربوعها .

وفى الحق ان صنعاء فى حالتها الراهنة تعتبر مدينة تعيش على هامش الزمن شيدها شعب ذكى متفنن قدير . ترى كم من السنين قد انقضت على تشييد تلك المبانى الشامخة المدهشة ؟ ترى هل بنيت بالأمس أو بنيت من ألف سنة ؟

لا علم لأحد بذلك ولا يعرف انسان شيئا عن مدارس المعمار التى ازدهرت يوما ما فى العربية السعيدة والتى ابتدعت هذه الأشكال المعمارية الأنيقة البارعة الجمال والزخارف التى تحير العقول والتى بقيت الى اليوم دون أن يأتى الزمن عليها أو ينال من جدتها . ففى مكان هذه القصور كانت قصور وقصور كانت لها نفس الموازنة وفيها نفس النسب ونفس هذا الخليط العجيب من النوافذ والشرفات والمشربيات من مختلف الأشكال والمقاسات ونفس الزخارف التى تمت بصلة للذوق الفارسى الأنيق .

ترى هل من الممكن أن تكون هذه عاصمة بلاد يسكنها شعب من البدو ؟

ان من يتحدث عن البداوة فى اليمن من المحتمل كثيرا أن يخلط بين العربية السعيدة والعربيات الأخرى التى أعطت مميزاتها الطبيعية لبلاد العرب هذا الاسم الممقوت الذى لا تحسد عليه أى اسم « صحراء العرب » اذ أن هنا لكل شيء من رجال أو مبان ـ أصول عميقة ثابتة فى الأرض لأن تربتها كثيرة الأنهار واسعة الثراء .

حقيقة توجد فى بلاد اليمن بعض القبائل البدوية الرحالة تعيش جهة الشرق على هوامش ذلك البحر الرملى الكبير الذى يغشى تلك الصحراء الشاسعة التى لم تكشف بعد ولم تعرف بواطنها والتى بنى فيها ـ على ما ترويه الأساطير القديمة ـــ أحد ملوك اليمن الأقدمين مدينة عظيمة شاهقة البنيان

يقال لها « ارم ذات العماد » ولـكن هل لبدو الشرق هؤلاء أى أثر فى حياة البلاد الاقتصادية وهـل يدخـلون ضمن الحساب عند ما يقدر الناس تعداد الشعب اليمنى بخمسة ملايين من الأنفس ؟

ليس الامـام يحـيى بحاجـة لتقليد زمـيله ابن سـعود الذى ينشىء « مستعمرات الاخـوان » لتحقيق مشروعـه العتيد الذى يرمى الى تثبيت الرعاة من البدو فى الأرض لأن اليمنيين قد بنوا من آلاف السنين مساكنهم وزرعوا حقولهم ولا أثر للبداوة فى اليمن لأن الجمالة ورعاة الابل أنفسهم الذين يؤمنون بضرورة التنقل من منطقة الى منطقة تتكون منهم كتلة من أناس لهم حركة لا تهدأ وعادات من الممكن اعتبارها من عادات الحضر لأن مراحلهم تنتهى دائماً فى الأوسـاط المسكونة فهم فى تهامة يقضون ليلهم فى داخل نطاق من القش ولـكنهم فى الهضاب حيث يشتد البرد فى الليل يأوون فى أماكن أعدت لراحة القوافل هى غرف كبيرة واسعة يلحق بكل منها مخزن واسطبل يلجأ اليها الجمالة بابلهم التى يشاركونها فيها الدفء والحشرات .

وتضحى صنعاء من حرمتها واعتبارها وجمالها وبما لها من كرامة بوصفها مدينة مقدسة بحريات كثيرة تتوفر فى أوساط يمنية أخرى فهنا نجد الحياة الاجتماعية أشد جفوة وأكثر عبوسا ــ على الأقل فى مظاهرها الخارجية ــ عنها فى أية مدينة أخرى . ترى أين ذهبت عربدة جماهير الحديدة وصيحاتهم؟ (ولـكن الحديدة كما هو معلوم مدينة أفسدها وجود المشركين بها .

ويوجـد على مقربة من « باب اليمـن » الذى سلـكناه فى دخـولنا الى العاصمة اليمنية شارع أطلق عليه اسم « شارع بحر رجرج » لأن دوره كان يسمع فيها فى العهـد الـتركى غنـاء « العوالم » الخليع وكانت تشهد رقص « الغوازى » المتهتك وكان يغشاها دائمـاً جمهور كبير من حثالة الناس حيث يشربون ويلهون ويطربون ويرتكبون المحرمات والآثام عـلى أن تلك « الرجرجة » قد سكنت اليوم لأن الشريعة التى تحرم اللهو والرقص والغناء وشرب الخمر وغير ذلك من المنكرات تنفذ بكل حزم وشـدة فى المدينة التى يسكنها الامام يحيى الذى هو « أمـير المؤمنين » — والتى يراقب فيها أئمة

الزيدية الأربعة مراقبة شديدة كل مظاهر الحياة الاجتماعية .

وقد اختفت بانتهاء الاستعمار التركى حتى بعض مشارب القهوة التى كان يقضى الناس فيها معظم أوقاتهم فى لهو وسمر وأصبح الآن أهل صنعاء فى أحسن حال اذ خلصوا أرواحهم وطهروا نفوسهم طمعا فى دخول الجنة التى وعدهم بها نبيهم والتى فيها ما تشتهيه الأنفس ويلذ الأعين . ومع ذلك فان طرقات صنعاء لاتزال كثيرة الحركة والضوضاء ولا سيما الشوارع الرئيسية وتتكون صنعاء من عدة أحياء تدخل كلها ضمن دائرة كبيرة من الأسوار وتنقسم فيما بينها بأسوار أخرى حتى لتبدو كأنها خزائن مغلقة باحكام فى احدى المدرعات . وفيها « سوق العزب » وهو أشبه شىء بالحدائق العامة المسكونة وقد شيد الاتراك هذا الحى (١) فى أيام حكمهم للبلاد . كما يوجد فى طرف المدينة الغربى « حى اليهود » ولكن « المدينة » وهى البلدة العربية القديمة هى دائما أهم الاحياء وأكثرها سكانا وأعظمها حركة ففيها الكثير من القصور الجميلة والمساجد الشاهقه والحمامات العامة والصهاريج والسوق الفتان الذى تعرض فى دكاكينه الصغيرة التى تفتح كافواه الافران على الحارات الضيقة كل ما تنتجه أو تستورده « العربية السعيدة » من الخارج .

والى جانب « المدينة » حى آخر يقال له حى « المتوكل » يقيم فيها الملك والى الجانب الآخر توجد القلعة وهى قوية متينة البنيان لايدرى الناظر اليها اذا كانت شيدت للدفاع عن المدينة أو لتهديدها . ولكن ترى أين يستطيع أهل صنعاء أن يجتمعوا اذا ما أرادوا التحدث أو السمر ؟

انهم يجتمعون فى « المفرج » الذى لا بد من وجوده والذى لا غنى عنه فى الدار اليمنية على أن بيوت الأعيان وعلية القوم تحتوى على « مفرجين » أحدهما فى الحديقة تظلله اشجار المانجو والرمان وامامه النافورة الفخمة تنثر المياه والثانى فى اعلى القصر . والمفرج بهو فسيح فتحت فيه كوات وكوابيل متعددة فى جدرانه وازينت حوائطه بزخارف بارزة من الجص وبه صفان

---

(١) ليس الأتراك هم الذين شيدوه وانما عمروه منذ سكنوه

صفان من النوافذ احدهما فوق الآخر فالعليا وهى كعيون المها مغلقة بألواح رقيقة من الرخام أو من البلور ينفذ من خلاها وقت الظهيرة نور ضعيف .

وأما أرض « المفرج » فتفرش ببسط شرقية زاهية الألوان تصف حولها وسائد وثيرة يجلس عليها رب الدار وحوله ضيوفه على الطريقة التركية وتقوم فى وسطه النرجيلة الفخمة المبرقشة ويقضى الصنعانيون فى الحديث والسمر ساعات طويلة وهم يدخنون ويمضغون « القات » ويبصقون فيما بين ذلك من آن لآخر فى مباصق معدنية صغيرة وهم فى أنس وبهجة وانشراح ويعلقون فى أحاديثهم على الاحـداث السياسية العالمية التى يتلقون أنباءها من الجرائد العربية التى تصـدر فى مصر وفلسطين والشام كما يتحدثون أحياناً فى الشعر والأدب وما الى ذلك .

وفى خارج طرقات السوق الصاخبة لا تسمع أصوات صنعاء . ولا يظهر لها أثر على أن المدينة كلها تغمرها فى الصباح الباكر قعقعة بكرات الآبار لأن لكل دار يمنية حديقة ولـكل حديقة بئر تروى منها وتقف على حافة كل بئر ناقة كسولة نهمة تروح وتغدو فى طريق ملتوية تطول عند ما تـكون المياه بعيدة الغور وترسل من أعلى ومن أسفل القرب الجلدية الضخمة تفيض بالمياه

وفى المساء يرتفع عواء الـكلاب الضالة ونباحها لأنه يوجد ـ على مقربة من « القصر الملـكى » فى شارع فسيح يكاد يكون لاتساعه وقصره ميداناً ـ سوق اللحم وفيه تتجمع كل كلاب المدينة التى تحيي الليل بعوائها الطويل ونباحها المتواصل ولمطاردة هـذه الـكلاب جيء بـكلاب أخرى لا تنبح ولـكنها تعض اذا لم تربط بالسلاسل .

ولا يسمع للجمهور صوت الا فى أيام رمضان عند ما يعلن مدفع القلعة انتهاء الصيام وفى أثناء الحفلات الدينية والعسكرية التى تقام فى يوم الجمعـة فانه يتحمس ويملأ الطرقات نشاطا وحركة وفى غير ذلك يسود المدينـة صمت عظيم وفى خلال هذا الصمت ترى النساء يمضين فى سكون ووقار داخـل براقعهن وحجبهن كأنهن الأشباح لأن البرقع اليمنى لايشبه فى شىء ذلك البرقع الشفاف الذى كان نساء القاهرة حتى سنوات قليلة يضعنه على وجوههن وانما

هو قناع كثيف كل الكثافة لايستطيع النظر أن ينفذ من خلاله أو يتمكن مما وراءه .

ويبدو أن نساء صنعاء جميلات ورشيقات ويجب أن أعترف بأنى لا أقول ذلك عن علم لأنهن يمضين فى الطرقات والشوارع فى المدن اليمنية ولا يمكن أن يراهن أحد بل له أن يتخيلهن اذا شاء اذ ترى الواحدة منهن كانها كومة صغيرة من الملابس المتعددة الألوان تمشى على قدميها بين الناس فاذا ما سألت عن تلك الكومة المتحركة قيل لك انها امرأة ولا شىء أكثر من ذلك وكل امرأة يمنية تحمل معها فى سيرها سر سمها وسر وجهها وسر جسمها وسر عمرها ولايستطيع الانسان أن يفهم كيف تتبين عيونها الطريق من خلال هذه البراقع الكثيفة .

ومن المؤكد أن اليمنيات لسن متبرمات بهذا الزى شأنهن فى ذلك شأن البندقيات اللائى كن فى القرن السابع يلبسن الوجوه المستعارة اذ كان يحدث أن يقابل الرجل زوجته أو ابنته أو اخته فى الطريق دون أن يستطيع التعرف عليها أو تمييزها من غيرها ويبدو أيضاً أن بقاءهن فى « الحريم » لا يحزنهن كثيرا اذ لدى كل منهن فى مملكتها الصغيرة الكثير من المشاغل ويكفى أن يعرف الانسان ما يلزمهن من الوقت ومن الصبر للتخضب بالحناء ورسم وشى رقيق على وجوههن وأذرعهن وأيديهن وأقدامهن فضلا من مشاغلهن المنزلية الأخرى .

٥

ملك العربيه السعيدة

فى الصباح الباكر ولما ترسل الشمس خيوطها الذهبية الأولى يدق بابى جندى من عساكر الامام دقاً متواصلا . ترى من الطارق وماذا يريد منى فى هذه الساعة المبكرة ؟

انه الامام يرسل طعام الافطار الى ضيف من ضيوفه مع جندى من جنوده !

ومما يلاحظ أن « السياحة » أمر مجهول تمام الجهل فى البلاد اليمنية (وربما يصعب على القارىء تصديق مثل هذا القول ومع ذلك فانه لا تزال توجد فى العالم بلاد تخلو من هيئات تفكر فى استجلاب السائحين اليها بوعود معسولة ومغريات كاذبة لكى تحبب إليهم السفر ولكى تجعل سفرهم كثير الكلفة والنفقات) وذلك لأن من يحصل من الامام يحيى على تصريح بزيارة مملكته يصبح « ضيف الامام » وفى هذا فوائد كثيرة وميزات لايستهان بها ولو أن فيه أيضا بعض المتاعب التى ما كنا لنقيم لها وزناً لو أننا لم نكن ممن يحبون أن يضعوا أنوفهم فى كل شىء وأن يفعلوا دائماً كل ما يشتهون .

وتصبح « ضيافة » الملك اليمنى محسوسة على الأخص فى المدينة التى يقيم هو فيها لأنى طالما بقيت فى صنعاء سوف يأتى عسكرى يقظ طلق المحيا باسم الثغر لزيارتى فى كل صباح يحمل الى مايسمونه فى روسيا الشيوعية « البايوك » وهو « الجراية » عيناً وتتكون هذه الجراية من ثلاثة أرغفة من الخبز وقطعة من لحم الضأن وبضع بيضات صغيرة « وزبدية » حمراء ملأى بالزبد المأخوذ من لبن الماعز وبعض الخضر وقليل من الزيت والبن والفاكهة

يالله ! ما أكرم هذا الملك وما أعظم سخائه ! ومع ذلك فطالما شوهوا سمعته فى الخارج وأذاعوا عنه ظلماً أنه أبخل انسان على وجه البسيطة .

وحتى فى « المفارج » التى تكثر فيها الأحاديث وتتبسط فيها الألسنة والتى

هى أشبه شىء بالصالونات الأوروبية لايسمع الانسان الا أحاديث وأقاصيص غريبة لايصدقها العقل اذ أن أعظم احتياط يدبر به الامام مالية بلاده يصبح موضوعا للتفكه والتندر والاحاديث فى ذلك مستفيضة والنوادر كثيرة . ترى هل حق ما يقال من أن موظفيه الذين يعملون فى سك النقود هم من اليهود المحكوم عليهم والذين أوقف تنفيذ العقوبة فيهم ومن الممكن القصاص منهم عندما يبدو منهم أقل شىء يريب ؟

ولا تخرج معامل سك النقود فى اليمن إلا العملة النحاسية(١) الصغيرة لأن الريالات الفضية الضخمة المنقوشة عليها صورة « ماريا ياتيريزا » انما تستورد من مدينة تريستا مع عملة سنة ١٧٨٠ وعندما تصبح الحاجة ماسة الى سك نقود جديدة يسلم الامام الى القائمين بأعمال دار سك النقود كمية من النحاس ويلزمهم بأن يحضروا له مايوازى وزنها من العملة اليمنية المسماة « بالبقشة » وهى عملة قيمتها واحد على أربعين من الريال ويرقب الامام عملية الوزن باهتمام وعناية وقد سمعه بعضهم وهو يعنف بعض مستخدميه لأنه اختلس بعض البقشات ويهدده بأشد أنواع العقاب اذا لم يقم بردها .

ولست فى حاجة الى تكرار القول بأن هذه كلها حكايات تافهة وبأن كل مايذاع من السفسطات والخزعبلات عن حياة الامام يحيى بن محمد حميد الدين وعن عاداته وأحواله الخاصة وشهواته لايمكن بحال أن ينقص من قيمة هذا الملك العظيم ومن مقدرته الفريدة ومن عبقرية ذلك الرجل الذى استرد لامامة الزيدية مركزها المفقود ولليمن استقلاله الضائع والذى تسيطر شخصيته القوية على الحياة السياسية والاجتماعيه فى « العربية السعيدة » .

ومن الغريب أن صحافة البلاد العربية الأخرى التى أصبحت على اتصال مستمر بالمدنية الغربية والتى تتطور فيها الافكار تطوراً سريعاً — يلذ لها أن تسخر فى بعض الاحيان من امام صنعاء ولو أنها تجد أن اليمن الذى يشبه فى نظرها

---

(١) المعروف أن دار الضرب فى اليمن تخرج جميع أنواع العملة الفضية والذهبية والريالات الا أن الريالات التى تخرجها قليلة .

خرافات القرون الوسطى — جدير بكثير من الاعتبار والاجلال لأنه لا يوجد فى الوقت الحاضر بلد عربى آخر يستطيع أن يفخر بأنه يتمتع بدرجة تماثل درجته فى الاستقلال ولأنه وهو محتبس فى عزلته التى تحمى ايمان الشعب وتصون عاداته وتقاليده الفاتنة يصر على رفض اقامة علاقات دبلوماسية أو قنصلية مع الدول الأخرى أو قبول الممثلين الأجانب وهو مع ذلك حر طليق من كل نفوذ سياسى أى كان ومن أية تبعية اقتصادية مهما كانت ضآلتها .

وعندما ولد الامام يحيى فى سنة ١٨٦٩ كانت الامامة الزيدية تجتاز محنة من اعظم المحن وتمر بها اسود ايامها لان الاستعمار التركى فى اليمن كان قد انقضى ومضت عليه ٢٣٩ سنة بعد الهزيمة المنكرة التى انزلها « المؤيد » بعساكر السلطان على ان الدولة اليمنية لم تهتم فى تلك الفترة البعيدة المدى بتقوية مركزها أو تحسين أحوالها لانه قد تولى الحكم فيها بعد الأئمة الاوائل الذين كانوا رجالا عقلاء بواسل — أئمة آخرون كانوا عجزة ضعاف النفوس واشرارا قساة القلوب ولذلك سرعان ما ضعفت سلطتهم وسقطت هيبتهم وهبت فى البلاد الثورات المختلفة التى ازعجتها ايما ازعاج حتى ان مدينة صنعاء نفسها قد انقسمت شيعا وأحزابا أخذت تقاتل بعضها بعضا بعنف وفى غير هوادة وكان بعضها يستنجد فى بعض الاحيان على بعضهما الآخر برجال القبائل الذين عاثوا فى الارض فسادا وهذا ما دعا أحد الأئمة الى التنازل عن سلطته وعن الامامة ، كما انه قد انتخب للامامة بعض المحتالين والمشعوذين فى بعض الاقاليم التى رفضت الخضوع لاوامر الحكومة المركزية .

بعد ذلك تولى عرش اليمن محمد بن يحيى الذى تربى ونشأ فى الديار المصرية وكان كثير الاعجاب بالاتراك ولذلك طلب اليهم العودة الى اليمن ولكن عندما دخل الالف والخمسمائة رجل الذين استحضرهم — فى صنعاء هاج الشعب اليمنى واشتد غضبه فارتكب الكثير من اعمال العنف وسالت الدماء انهارا وغزا العاصمة وهدمها على من فيها وقتل الامام شر قتله وبذلك سقطت البلاد فى الفوضى وعم الفساد وعند ذلك قام شيخ من افراد اسرة « الحيمى » ونصب نفسه سيدا على صنعاء كما قام غيره من الزعماء والرؤساء بانشاء حكومات

مستقلة فى مختلف الاقاليم واشتد الصراع بين رجال القبائل وذاع السلب والنهب وانتشرت المذابح فى كل مكان وفى عام ١٨٧١ نزلت حملة تركية جديدة فى تهامة وسارت نحو العاصمة وعندئذ قام وفد من اعيان البلاد ووجوهها لاستقبالها فى « مناخة » واعلن لها استسلام صنعاء وكافة بلاد الهضبة اليمنية ولذلك انسحب الرؤساء الزيديون الى الاقاليم الشمالية حيث احتفظوا لانفسهم بمظهر بسيط من مظاهر السلطة على الاهالى وكانت سلطة دينية بحته وبذلك استقر الاستعمار التركى فى اليمن مرة ثانية .

فى ذلك الوقت كان الامام يحيي يبلغ من العمر سنتين اثنتين وكان يعيش فى حريم أبيه محمد حميد الدين وعند وصول الترك حمل محمد أولاده ونساءه وثروته على ظهور الابل وانتقل بهم الى « قفلة عذر » وكان ينتسب الى أسرة شريفة من الأسر العريقة التى تفخر بانتسابها الى فاطمة الزهراء ابنة الرسول والامام على بن أبى طالب .

وما وصل يحيى الصغير الى السن التى تسمح له بترك ابهاء « الحريم » حتى تولى كبار العلماء ومشاهير القضاة والفقهاء أمر تعليمه وتثقيفه فعلمه القضاة الشريعة الاسلامية ولقنه العلماء العلوم والآداب وكان أبوه يشرف بنفسه على تعليمه كما كان يعلمه الفنون الحربية فسرعان ما ظهرت مواهبه العظيمة وأعجب الجميع بذكائه وعبقريته .

وقد جرت عادة الزيود حتى فى عهد خضوع اليمن للاستعمار التركى على أن ينتخبوا ملوكهم فالامام هو قبل كل شىء الرئيس الدينى الأعلى وهو أمير المؤمنين ومن بين ألقابه العديدة لقب « المتوكل على الله » ، وفى سنة ١٨٩٠ انتخب الزيود فى مدينة « صعده » على حدود العسير امامهم الجديد فى شخص محمد حميد الدين وأصبح ابنه الأكبر « يحيى » هو سيف الاسلام وعندئذ بدأت الحركة التى كانت ترمى الى استعادة سلطة الملوك الزيديين وتحرير البلاد من النير الأجنبى فجمع محمد بعض الفرق العسكرية واخترق بهم حدود المراكز التركية فى حجة وعمران كما حاصر مدينة صنعاء . ولقد قامت على اثر تلك الحركة حركات أخرى مماثلة فى أواخر القرن الماضى وقد اتيحت الفرص فى

تلك الحركات للشاب « يحيى » لاظهار مواهبه العظيمة كقائد باسل وزعيم عظيم حتى انه عندما توفى والده فى عام ١٩٠٤ اتجهت أنظار الزيود نحوه لتوليته الحكم فى البلاد بعد أبيه اذ كانت تتوافر فيه كافة المزايا وكل ماتتطلبه امامة الزيديين من الشروط .

والامامة — كما قلت فيما سبق — لاتورث وكان اعتلاء العرش فى أغلب الأحيان برضاء أفراد الأسرة المالكة ولو أنه لايوجد نظام ملكى خاص بهذا الشأن وعندما يخلو العرش يجتمع رؤساء الزيود ويأخذون فى انتخاب الامام والشروط الواجب توافرها فى الامام أربعة عشر أهمها أن يكون شريفا منحدراً من نسل فاطمة وعلى وأن يكون رجلا تقيا صادقاً فى قوله عادلا مستقيما ذكيا ذا نفس أبية له نفوذ وسيطرة على الشعب وأن يكون قد أثبت أنه محارب كفء باسل وحاكم حازم يقظ .

ولكن هذه الانتخابات ككل انتخابات أخرى فى كل زمان ومكان تجرى غالباً فى أحوال شاذة مضطربة وفى تاريخ اليمن حادث فريد وهو أن أحد المطالبين بالعرش وهو المهدى عباس (١) الذى ظهر لمجلس الرؤساء المجتمعين لانتخاب الامام انه لاتتوافر فيه الا سبعة شروط من الاربعة عشر الواجب توافرها فى الامام قال للمجتمعين أما عن الشروط الاخرى فان فى استطاعتى أن أقدم لكم مايغنى عنها وهو هذا وأخرج سيفه من غمده . . . وعندئذ تم انتخابه اماما ولا يرى القانون الزيدى بأساً من الحصول على الامامة « بحد السيف » .

ارتقى يحيى عرش اليمن بدون جلبة ولاضوضاء وبموافقة اجماعية وكان أول عمل قام به هو أن شهر الحرب على الاتراك وهاجمهم بعساكره وأخذ فى الزحف حتى بلغ أسوار مدينة صنعاء ولما علم السلطان بذلك جرد بسرعة جيشا كبيراً وأرسله لمحاربته وتأديبه ولكن العساكر الزيديين هاجموه فى أثناء سيره فى الجبال وأسروا فرقة التموين بأكملها وهكذا أخليت صنعاء ودخلها « يحيى » بجنوده دخول الفاتحين ولكنه طرد منها مرة أخرى على

---

(١) المفهوم ان هذا حدث لاحد الائمة الذين خلفوا هذا الامام .

يد حملة تركية ثانية لم تلبث أن اضطرت لاخلاء المدينة بعد قليل من الزمن بسبب نقص الاقوات فيها .

وقد نجح الامام يحيى فى هذه الفرصة فى الاستيلاء على كافة أنحاء الهضبة المتوسطة حتى مدينة «إب» ولكن كانت قد وصلت حملة تركية جديدة اشتبكت معها على مقربة من «متناخ» فى معركة عنيفة دامت ثلاثة أيام وثلاث ليال وأخيراً انتصرت جيوش السلطان التى كانت مسلحة تسليحا قويا ومدربة أحسن تدريب – على الجيوش اليمنية التى كانت تتألف من رجال قبائل ومن بدو حفاة الاقدام كانوا لايزالون يحتفظون بعادتهم القديمة وهى أن يغرسوا حول عمائمهم فتائل بنادقهم القديمة. وكذلك انسحب الامام يحيي الى قفلة عذر على ان هذه الهزيمة لم تفت فى عضده ولم توهن عزيمته اذ أنه أخذ يحارب الغزاة بصبر وعناد وأوقع بهم خسائر فادحة وعلى الأخص عندما وجهوا حملات تأديبية على قبائل الشمال وحاول الترك أن يقيموا بدلا منه اماما زيديا آخر ولكنهم لم ينجحوا وأخيراً اضطر الباب العالى الى طلب الصلح مع الامام وامضى معه اتفاقا فى سنة ١٩١٢ تركت للادارة التركية بمقتضاه مدينة صنعاء ومعظم الاراضى الساحلية . أما المناطق الاخرى أى الاقاليم الزيدية فانها تركت تحت ادارة الامام وسلطته الدينية والادارية وعندئذ استبدل القانون التركى الذى كان معمولا به فى البلاد بالشريعة الاسلامية ووكل بادارة القضاء موظفون كان يعينهم الامام .

أما الامام يحيى فانه بعد أن ضمن اعانة سنوية لشخصه ولكبار موظفيه من خزانة الدولة العثمانية اتخذ لنفسه مقرا فى خمر (١) حيث أخذ يباشر سلطته وينشر نفوذه ويبسط فيه فى الاراضى التى خصصت له بمقتضى الاتفاق وفى العاصمة نفسها بينما كان عيونه وجواسيسه يتوغلون فى محميات عدن وفى حضرموت ومن ذلك الوقت أصبح الامام يحيى هو الملك الحقيقى فى البلاد .

وفى اثناء الحرب العظمى الاولى رفض الامام يحيى بشمم واباء كل محالفة

---

(١) خمر مدينة فى شمال صنعاء على نحو ستين كيلو مترا منها .

اقترحها عليه الانجليز ورغما من انه حارب الاتراك لضمان استقلال بلاده الا انه آثر أن تقطع رقبته ورقاب اولاده على أن يحالف الكفار . وعندما وضعت تلك الحرب اوزارها دخل صنعاء دون أن يجد أية مشقة أو أية مقاومة من احد .

***

وهناك من يقولون فى الوقت الحاضر بأن الامام يحيى لا يفكر الا فى جمع الثروة وهذا ليس من الحق فى شىء لان ارادته القوية وبصيرته النافذة تحيط بكل شىء فى اليمن فهو يهتم بكل انسان وبكل شىء ويقوم باهم اعمال الدولة وبما ينشأ من خلاف بين القبائل حول ملكية بعير او رى حقل من حقول الاذرة .

ويتحدث الكثيرون عن كنوز الامام وما فيها من ذهب وفضة كما لو كانوا يتحدثون عن كنوز سليمان ويقولون انها مدفونة فى خزائن سرية مسحورة تحت الارض ويسهر على حراستها حراس مخلصون ورجال اقوياء اشداء وانها مخبوءة فى بطون الجبال فى كهوف مغلقه بجلاميد من الصخور الهائلة ويفيض خيال اليمنيين فى هذه الموضوعات بالكثير من الاحاديث والاوصاف ، ومما لاشك فيه أن الامام يحيى يمتلك ثروة لا بأس بها ولكن ترى لمن يوفر هذه الثروة ؟ هل يوفرها لنفسه أو لبلاده ؟

ان اليمن لم يحصل على كل الاراضى التى كانت له فى ايام عزه ومجده عندما كانت تمتد حدوده الى العسير شمالا والى عدن وحضرموت فى الجنوب ولكن ترى اى المشروعات يجول بخاطر الامام يحيى ؟

ليس فى استطاعة مخلوق ان يقول شيئا فى ذلك لان كل شىء يدعو للظن بانه يهتم فى الوقت الحاضر بان يضمن لليمن الهدوء والاستقرار مدة طويلة ولكن العرب يشبهون الانهار التى تجرى فى بلادهم والتى تبقى أجوافها جافة عدة سنين ثم تمتلىء على حين غفلة بالمياه القوية الجارفة التى تأخذ مجراها بعنف وشدة وتكتسح كل ما فى طريقها !

٦

جمعة رمضان

« شهر رمضان الذى أنزل فيه القرآن هدى للناس وبينات من الهدى والفرقان فمن شهد منكم الشهر فليصمه ».

لا يسع الانسان الا أن يعجب بالحكمة البالغة التى وضعتها الشريعة الاسلامية اذ فرضت على المسلمين أصح العادات فى الحياة التى هم فى أشد الحاجة اليها فان الصلاه التى فرضت عليهم اقامتها خمس مرات فى اليوم ليست هى محض عبادة بل هى أيضاً تمرين جسدى عظيم الفائدة هو أشبه شىء بالتمرينات الرياضية السويدية وهى وقاية وجنة لشعب يميل بطبيعته الى الركود وعدم الحركة بسبب حرارة البلاد التى يعيش فيها فضلا عن أن فرائض الوضوء قبل الصلاة والتطهر واختيار الأطعمة وقواعد النكاح وتحريم المشروبات الروحية كلها أشياء جديرة بالاعجاب والاحترام ولوانه من الصعب اقناع الغربى بسهولة بفكرة صوم رمضان المفروض على المسلمين والذى يقلب مدى شهر كامل نظام الحياة الاسلامية رأساً على عقب ويقلل الى أقصى الحدود الحركة والنشاط فى العمل اذ يصوم المسلمون من انبثاق الفجر حتى غروب الشمس ويمتنعون عن المأكل والمشرب وفيهم من المتمسكين من يتأخرون فى الافطار بعض الوقت عن الغروب للتمكين .

على أنهم منذ أن يرخى الليل سدوله حتى اللحظة التى يتبين فيها الخيط الأبيض من الخيط الأسود يباح لهم كل شىء مما امتنع عليهم بالنهار وقد يعجب الانسان لأول وهلة لمثل هذا الصيام وقد لا يستطيع ان يفهم الفوائد التى قد تعود على المسلم منه وقد اعتاد اليمنيون أن يناموا بعد صلاة الفجر وأن لا يستيقظوا من نومهم الا فى ساعات القيلولة وأما فى أثناء الليل فيأكلون كما يشتهون ويدخنون التبغ فى النرجيلات ويمضغون أوراق « القات »

وفى كل يوم من أيام شهر رمضان تعلن طلقات مدافع «القصر» للشعب اليمنى بداية الصوم ونهايته وحتى فى قلب الليل فى السحر تطلق هـذه المدافع لتدعو المسلمين لتناول الوجبة الأخيرة « السحور » حتى لايفاجئهم نور الفجر وفى فمهم طعام أو شراب . وان تدخل « المدفعية » فى أهم طقوس رمضان ليفهمنا الطبيعة الحتمية التى يفرضها على اليمنيين ذلك النظام الذى يوجب قيام الليل وصيام النهار الذى توقف أو تـكاد توقف فيـه كل الأشـغال العامة ويفرض فيه الركود الرسمى على كل الأعمال .

***

اما يوم الجمعة الأخيرة من رمضان فيحتفل به احتفالا عظيما منقطع النظير ففى ذلك اليوم يخرج الامام فى موكب فخم الى المسجد الكبير لاداء الصلاة وعندئذ تغلق أبواب المدينة كلها وقد جرت العادة بذلك من عهـد بعيد اذ حدث مرة أن انتهز بعض رجال القبائل الثائرة فرصة هذه الصلاة الجامعـة ودخلوا صنعاء وانسل نفر منهم الى المسجد وقتلوا الامام فى اثناء الصلاة .

والمسجد الكبير الذى يؤدى فيه الامام هذه الصلاة فى العاصمة اليمانية هو مسجد قديم العهد يقال انه شيد قبل ميلاد النبي ليكون كنيسة للمسيحيين (١) وربما كانت هذه الكنيسة قـد خصصت للاسقف المبعوث من قبل بطريرك الاسكندرية لنشر تعاليم الأنجيل فى ربوع العربية السعيـدة . ولهذا المسجد صحن كبير مرصوف بالحجارة السوداء ومحوط بصفوف متناسقة من الاعمدة العالية ذات الزخارف الانيقة يجتمع فيـه الكافة والخاصة على قدم المساواة للصلاة .

والسادة فى اليمن جمهرة كبيرة قوية وكلهم من نسل الرسول وبيـدهم كل السلطات ويلبسون فوق رءوسهم عمائم بيضاء كبيرة مستـديرة الشكل . اما الامام وانجاله فهم وحـدهم الذين لهم الحق فى ان يتركوا طرفاً من الشال

---

(١) ليس هذا بصحيح وانما أسس جامع صنعاء هذا فى عهد معاذ بن جبل الصحابي الشهير ثم وسع فى أيام الوليد ومن بعده اما الكنيسة التى اشار اليها فلعلها كنيسة القليس وهي لا تزال معروفة فى صنعاء بآثارها فى الجانب الجنوبي الشرقى من المدينة

الكبير الذى يلفون به رءوسهم يتدلى خلف ظهورهم .

وعندما تخرج العربة التى يركبها المليك والتى يجرها جوادان مطهمان من جياد « الجوف » العربية الأصيلة — من فناء « المقام » للتوجه الى المسجد الجامع تسمع أصوات حادة صاخبة من البورى تجيب عليها اصوات اخرى تماثلها من رجال الحرس الذين يقفون فوق ابراج سور المدينة ويحف بالعربة كبار الموظفين وذوو المقامات وعلية القوم على جيادهم وعدد كبير من الضباط والعساكر والسياس ويقودها حوذيان يلبس كل منهما عمامة حمراء كما يقف رجلان مسلحان من رجال الحرس فوق المقعد الخلفى منها وفى داخلها يجلس اثنان من الامراء يرتديان افخم الملابس فى مواجهة الامام الذى يتصدر شخصه الكريم فى وسط المقعد .

ولباس الامام الرسمى فيه بهجة وزينة تبهر الانظار فالذهب يتوقد فوق زرقة قميصه وعلى اكمامه الفضفاضة وفوق عمامته الخضراء وحزامه الزبرجدى ويزدهر فوق الأسلاك الرفيعة التى توشى بها ازراره ويسطع تحت الاحجار الكريمة التى تمتلىء بها قبضة خنجره . ويتقدم الموكب رجال « العكفه » حرس الملك المخلصون وهم بدو نحاف الابدان اقوياء ، كأن جسومهم قد قدت من الجلمود لهم ضفائر طويلة تتدلى من رءوسهم ويرتدون مآزر (فوط) بنفسجية اللون مصبوغة بالنيلة التى يؤثر لونها الازرق على الجلد ويقى من الامراض وهم يمسكون بعضهم بأيدى البعض ويسيرون بخطى راقصة سريعة وينشدون اناشيدهم المشجية اللطيفة فى مدح سيدهم الامام والاشادة بذكره .

وتزدحم الجماهير حول هؤلاء وهؤلاء ويتكاثر عددها حتى تصير كأنها البحر الزاخر وهى خليط من كل شكل ومن كل لون ومن كل صنف من شيب وشبان وبنين وبنات واطفال تملأ انفاسهم الجو حرارة وتنطلق من افواههم صيحات عالية هنا وهناك .

وقبيل خروج الملك تبدو الجهات المحيطة بالمقام فى منظر فتان يخلب الالباب فالموظفون و الكتاب العموميون يهرولون زرافات ووحدانا ويتجمعون

حيث يجلسون القرفصاء فوق حائط السور ويجتمع حولهم كل من له حاجة وكل صاحب مظلمة يريد عرضها على الامام فتكتب العرائض والاسترحامات على قصاصات من الورق ويرفع بعض المتظلمين الصوت عاليا بظلاماتهم وشكاواهم وهم يوجهون نظراتهم حولهم ذات اليمين وذات الشمال كما لو كانوا يريدون التأكد من عطف الشعب على ظلامتهم قبل ان ينالوا العدالة من المليك ويصيح أحد الجنود قائلا : «لقد مضت ثلاثة اشهر لم يدفع لى مرتبى فهل هناك ظلم أشد من هذا ؟ نرجو يامولانا ان تعمل على محو هذا العار» . وفى مكان آخر يقف جمهور من رجال القبائل كلهم يرتدون ملابس من جلود الاغنام وقد جاءوا من بلادهم البعيدة يلتمسون تدخل المليك لانصافهم من عامل قريتهم الذى يسرف فى استعمال سلطته وفى مكان آخر تقف امرأة محجبة تهمس فى أذن الكاتب بشكواها السرية الى غير ذلك مما لا يحصيه عد .

بعد ذلك يخرج الموكب الملكى من « المقام » فيختلط المتظلمون بعضهم ببعض وهم يصيحون ويصرخون فى وجوه عساكر الحرس والفرسان ولما يقترب هؤلاء منهم يقذفون باوراقهم التى تتضمن شكاياتهم والتى يلتقطها الامام بيديه بحذق غريب وهى متناثرة فى الهواء .

ويعود الموكب الى التألف ثانية بعد حفلة الجامع للعودة الى « المقام » حيث يجرى الاستعراض العسكرى العتيد تحت جدرانه وتدخل العربة الملكية بين جناحين من الجماهير حتى تقف فى وسط فنائه وينزل منها « الامام » بمساعدة الامراء ويجتمع حوله « السادة » الذى ينحنون أمامه لتقبيل ركبتيه ويقف الى جانب « السادة » انجال الامام الصغار واولاد الامراء وكتلة كبيرة من الصبية الذين تتراوح أعمارهم بين السادسة والثانية عشر والذين بمجرد ان يبتعد الامام يسرعون الى تسلق عربته ويتدافعون بالمناكب للجلوس فى اوسع مكان فيها وهو الذى يجلس فيه الحوذيان .

ولقد أتيح لى أن أحضر حفلة العرض العسكرى الذى يجرى آخر يوم جمعة من رمضان وان اشهد هذا العرض من مقصف صغير فى دار الحكومة لا يبعد كثيرا عن المقصف الذى يجلس فيه الامام على مرأى من شعبه فوق مقعد

اخضر اللون قليل الارتفاع نقشت على جانبيه المصنوعين من خشب التـاك آيات من القرآن الكريم وأول شيء رأيناه فى هذا العرض هو فرقة الموسيقى العسكرية ومما لاحظناه ان كل الآلات التى فى أيدى رجالها ان هى الا طبول وابواق ولا شيء غير ذلك . ويدير هذه الفرقة شيخ تركى متقدم فى السن تدين له اليمن بنشيدها الوطنى المفرح . وعندما تصطف فرقه الموسيقى امام شرفة الامام على الجانب الآخر من الطريق تتقدم فرقة من الجند تحمل العلم اليمنى الاحمر اللون الذى رسم عليه سيف وخمس نجوم بيضاء ثم تمر فرقة بعد اخرى فى صفوف متتالية ينتظم فى كل صف منها اربعة من الجنود ويسير فى المقدمة المشاة حاملين بنادقهم على اكتافهم ومن خلفهم فرقة مدافع المتراليوزات وفى اثرها المدفعية المكونة من بطارية ميدان ومن قسم من بطارية جبلية تجرها البغال ويسبق هؤلاء الجنود ضباطهم ومعظمهم من الضباط او صف الضباط الاتراك وعندما كانت فرق الجيش تمر امام الامام كانت تؤدى له التحية على الطريقه الاوربية .

ومن الجرأة والمبالغة الجزم بأن الجيش اليمنى يملك آلات حربية فنية ذات قيمة تذكر وقد حدث فى وقت ما أن نشرت الصحافة الأوروبية أخباراً جمعتها من مصادر عربية عن استعدادات حربية هائلة فى اليمن ولكن ليس هناك مايبرر ماقيل من هذا القبيل فان اقتراع الجنود يسير فى اليمن على النظام المعتاد (١) كما أن المصنع الذى أعدته الحكومة لصناعة خرطوش البنادق، التى هى الصناعة الحربية الوحيدة لم يزد فى أعماله البسيطة البطيئة وكل ماشوهد فى الأوقات الأخيرة من الآلات الحربية الواردة الى اليمن والتى أفرغت من السفن فى ثغر الحديدة لايزيد على العشرين أو الثلاثين دبابة من المحتمل كثيراً أن يهمل استعمالها فى أقرب وقت نظراً لحالات الطرق اليمنية السيئة ولقلة مهارة السائقين الوطنيين وليس لدينا الا القليل اذا ماأردنا

---

(١) يلاحظ هنا أن الحكومة اليمنية زادت جيشها بعد هذا التاريخ وجعلت التجنيد اجباريا فانشأت جيش الدفاع الوطنى

التحدث عن الفرق الميكانية فى الجيش اليمنى .

أما الطيران فقد أصبح اليوم لا وجود له فى اليمن ومن عدة سنوات أرسل الامام يحيى إلى ايطاليا بعض الشبان اليمنيين لدراسة فن الطيران فى معاهدها كما وصلت طيارتان الى صنعاء ولكن منذ ان سقطت احدى الطيارات الالمانية على احدى الهضبات فى ضواحى العاصمة فى اثناء حفلة طيران استعراضية لم يشأ الامام ان يسمع كلمة واحدة من أحد عن الطيران فى بلاده واستخدم طياريه الذين تعلموا هذا الفن فى ايطاليا فى العمل فى ادارة البريد وفى بعض مصالح الحكومة الاخرى .

وليس الجيش اليمنى كثير العدد اذ يتكون من عشر فرق تضم كل منها ألفاً من الجنود وهؤلاء هم الذين يتكون منهم الجيش النظامى على أنه فى وقت الحاجة يستدعى الى حمل السلاح جيش احتياطى آخر يطلق عليه اسم « الجيش البرانى » وهو الجيش الغير النظامى المكون من رجال القبائل اذ ان كل قبيلة ملزمة بتقديم عدد من الجنود يتناسب مع عدد رجالها ونظام التجنيد فى اليمن يقوم على التطوع فى صفوف الجيش على انه كما هو معلوم — تطوع لمدى الحياة واذا اراد جندى ترك الجيش وجب عليه ان يدفع للحكومة مبلغا من المال يتراوح بين خمسين وثمانين من الريالات او ان يأتى فى مكانه بمن يخلفه اما المرتب الذى يتقاضاه الجندى فهو ست ريالات وخمسة وعشرون كيلو جراما من الاذرة فى الشهر الواحد مضافا اليه اربعة ارغفة فى كل يوم وهذا المرتب ليس بالكثير ولكنه على كل حال لا بأس به لان العمال المدنيين لا يكتسبون اكثر منه واما الموظفون فانهم يتقاضون من الدولة رواتب صغيرة لانهم يستطيعون تدبير حياتهم باية طريقة ! !

ويتسلم الجندى اليمنى من حكومته البندقيه والحزام ولا شىء غير ذلك اما الملابس فيجب أن يحصل عليها من راتبه الضئيل وعلى ما يريد ويشتهى ولا يمتاز الجنود اليمنيون عن(١) الأهالى المدنيين بشىء الا بالبندقيه والحزام

---

(١) قد جعل للجنود ملبس خاص موحد .

على أن الجندى لكى تكون له هذه الصفة يجب على الأقل أن تكون له سترة يلبسها وعلى أن لاتكون سترة كيفما اتفق بل لابد ان تكون من تلك السترات ذات المنظر الخلاب والتى تكون لها أزرار ذهبية (١)

اما الموسيقى العسكريه فى هذه المدينة التى تمنع فيها كل موسيقى اخرى فانها تبدو انها لاتتعب ولا تمل وهى تعزف باستمرار تحت ادارة معلم متقدم فى السن يبقى دائما فوق بغلته نظراً لضعفه وعدم قدرته على المسير أو الوقوف على قدميه وهذه الموسيقى ماهى الا مارشات لايعلم الا الله من أين أخذت ولا كيف امكن توقيعها وعزفها بهذه الآلات الموسيقية المحدودة التى فى متناول ايدى الفرقة اليمنية وقد كنا نسمع بين آن وآخر نبرات النشيد اليمنى السهلة المرحة التى تشبه احدى الاغانى الشعبية .

وتكريما « لضيف الامام » ولادخال السرور على نفسه هاهى ذى الفرقة اليمنية الموسيقية تعزف بعض الاناشيد الايطالية بينما تمر آخر فرقة من فرق الجيش أمامنا واذ ذاك يكون قد اجتمع حول مقصف الامام جمع كبير من الاعيان والوزراء والموظفين ويزدحم كل هؤلاء وهؤلاء فى السلاملك الذى تجرى فيه الاحتفالات .

---

(١) كان بعض ماقيل قبل توحيد ملابس الجنود .

٧

جلسة طريفة مع الامام

من الاشياء التى ينصح بها للاوربى عند وصوله الى صنعاء أن يدع قبعته جانبا وأن يحصل لنفسه على طربوش من صوف الغنم الاسود لان المسلمين فى هذه البلاد لايضايقهم شىء اكثر من منظر غطاء للرأس لا يسمح لجبينهم بلمس الارض وينم على الكافر الذى لا يؤدى الصلاة الاسلامية ولا يقيم لها وزنا .

وقد احتل الطربوش المكان الاول فى البلاد الاسلامية وتفوق على العمائم فى العهد العثمانى ولا يزال يحتفظ بمركزة للآن ولو أنه سقط من شاهق مجده فى تركيا وكان له اسوأ مصير فى ايران . ولكن لم يا ترى تلك الاهمية العظمى التى تعطى للقبعة فى العالم العصرى لا بصفتها ظاهرة من ظواهر الاناقة والجمال أو نوعا من الازياء بل بصفتها رمزا سياسيا اودينيا فان الثورة البلشفية وجدت رمزها عندما ترك الرفيق لينين قبعته البورجوازية فى عربة القطار المصفح الذى نقله الى روسيا ووضع فوق رأسه قلنسوة بسيطة من تلك القلنسوات التى يلبسها العمال ؟

لهذا حصلت على طربوش جميل لبسته فوق رأسى عندما ذهبت قبيل الساعة العاشرة مساء الى « القصر » الذى يسكنه الامام ـ بصحبة اثنين من الجنود كانا ينيران بمصباحيهما الطريق امامى ولم اكن بالطبع انا الذى تخيرت هذه الساعة المتأخرة لزيارة عظيمة مثل هذه الزيارة بل ان الوزير راغب بك الذى فضلا عن قيامه باعباء وزارة الخارجية اليمنية يقوم بلباقة ومهارة بمهمة رئيس البروتوكول — كان قد ارسل لى بطاقة فيها رسالة قصيرة هذا نصها : « بسبب حلول شهر رمضان سيستقبلكم جلالة الامام الليلة فى قصره فى الساعة العاشرة »

وربما كان اختيار هذه الساعة المتأخرة هو السبب فى الابقاء على آلتى الفوتوغرافية التى لها قيمة عظيمة فى هذا البلد الذى لم يعرف عن مناظره فى الخارج الا الشىء القليل النادر وأحسب لو أنى ذهبت للتشرف بالمثول بين يدى المليك فى اية ساعة من ساعات النهار وحملت معى آلتى الفوتوغرافية لالتقط بها بعض الصور فى الوقت المناسب لكان الامام لحظ ذلك ولبادرنى بقوله : ما أجمل هذه الآلة ! ارنى اياها » وما هى الا ان يتناولها بيده حتى يلقى بها الى الارض فتصبح هشيما . (١) وقد حدث هذا لبعض الزوار لان العقيدة الاسلامية تحرم تصوير الاشكال الآدمية على ان كثيرين من المسلمين اصبحوا لا يقيمون لذلك وزنا ويبدو السرور على وجوههم عندما يقفون امام احدى العدسات ولكن هذا ليس رأى الجميع فانه حتى فى الشوارع والطرقات يجب على الفوتوغرافى ان يستعمل الحكمة والحذر وان يتذرع بالصبر والحزم لانه قد يلتقى باحد المتعصبين المتنطمين ويصطدم معه وقد جرؤ مرة احد الروسيين على الطواف فى أحد ميادين صنعاء وهو يدير يد احدى آلات التصوير السينمائية فلم يلبث ان هاجمته الجماهير واعتدت عليه اعتداء شنيعا وما كان اعظم سرور اليمنيين لو ان هذه الآلة التقطت صورة لمليكهم المحبوب بدلا من تلك الصورة التى عملت فى غيابه بالريشة من الذاكرة والتى جاءت بعيدة عن شبهه كل البعد ولعمرى انها لجريمة لا تغتفر لان الامام يحيى هو أحد الرجال الافذاذ العظيمى الاهمية الموجودين فى قيد الحياة اذ انه رئيس دولة مستقلة يعيش محتبسا بين حدود مملكته كما انه الرئيس الاعلى لاحدى الطوائف الدينية الكبيرة واحد الدكتاتوريين القلائل الموجودين على ظهر البسيطة فى هذه الايام لان كل السلطات فى بلاده متركزة بين يديه وما وزراؤه الا موظفون حاذقون يخلصون له كل الاخلاص ولا يجرءون حتى

---

(١) المعلوم أن جلالة الامام يحيى لا يرى باسا من أخذ الصور الفوتوغرافية ولكنه لا يسمح لاحد بان يأخذ لجلالته صورة وقد يكون المؤلف قد أستقى هذه المعلومات التى لا اصل لها من مصادر غير موثوق بها .

فى أبسط الامور واقلها اهمية على ان يتحملوا اية تبعة او أن يبرموا أمراً قبل ان يتسلموا اوامره وتعليماته فيه .

والامام يحيى فى نظر رعاياه شخصية مقدسة فهم يأتون اليه فى بعض الاحيان من اماكن بعيدة فى قوافل تسير اياما وليال وهم من البدو المرضى للتبرك به ولالتماس الشفاء من أمراضهم منه ولكى يمد يده الكريمة ويمسح بها على رءوسهم واكتافهم كما كان يحدث فى فرنسا وانجلترا من قرون بعيدة عندما كان يقال : اذا لمسك الملك شفاك الله ! ويكتب له الزيديون من اقاصى الهند يطلبون اليه أن ينادى بنفسه خليفة للمسلمين وقد كثرت احاديث الناس فى اوربا عن « يحيى بن محمد » كما لو كانوا يتحدثون عن شخصية غامضة محوطة بالاسرار وهذا خطأ فاحش ولكنه ليس خطأنا نحن الاوربيين بل هو خطؤه هو لايد لاحد غيره فيه . حقيقة ان ائمة اليمن السابقين كانوا يعيشون فى برج من العاج بعيدين عن انظار الشعب وفى عزلة لا يمكن التغلغل فيها أو النفاذ منها كانت تجعلهم لغزا من الالغاز ولقد كانت هذه العزلة التى كان من شأنها ارتفاع مقامهم وعلو مركزهم وزيادة هيبتهم فى نظر الجماهير مطابقة للتقاليد القديمة الموروثة التى يرجع اصلها الى ملوك سبأ الذين تقول الاساطير عنهم انهم ما كانوا يستطيعون الخروج من مساكنهم الفخمة الانيقة مخافة ان ترجمهم الجماهير بالحجارة ! !

وقد بقى والد الامام يحيى متمسكا بهذه العادة محترما لهذه التقاليد الغريبة التى جرى عليها ملوك اليمن ولكن الامام يحيى على عكس ابيه وأجداده عمل دائما على أن يكون على صلة دائمة بشعبه ويمكن القول بانه يعيش على مشهد من الشعب فاذا ماقرر يوماً بيع احدى جواربه مثلا أو اذا بدأت احدى ركبتيه تشكو من النقرس فلا تمضى نصف ساعة حتى يكون قد عرف ذلك كل أهالى صنعاء .

ويجلس الامام يحيى فى فصل الصيف فى أحد افنية « المقام » تحت ظل شجرة كبيرة يحيط به رجال دولته وجنوده ويعقد جلسة يقصدها البدو

من الأقاليم الشرقية البعيدة لعرض شكاواهم ومظلماتهم وعندما يصلون الى أبواب قصره ينحرون شاة أو عنزا وهكذا يجددون تلك الطقوس اليمنية القديمة على أن هذه « الضحية » أصبحت لاضرورة لها لأنه من الممكن أن يدخل أى انسان متى شاء ولا تثريب عليه والامام يستمع الى الجميع ويجيب على كل متحدث باجابات حكيمة متزنة تدل على رجاحة العقل ويتقبلها الجميع بنفس مطمئنة راضية والامام رجل مثقف واسع الاطلاع ومكتبته الفسيحة غنية بما حوته من كتب قديمة قيمة ويقال انه يهتم كثيرا بعلم الفلك ويميل الى قرض الشعر .

أما مسكنه فهو قصر عظيم جدير بملك عظيم مثله ويطلق عليه اسم « المقام » ولا ينقص « المقام » شيء من الزخرف أو الأبهة والوجاهة اللائقة بمقر ملك شرقي غني وهو يتجلى فى وسط سور كبير تكاد تتكون من جدرانه مجموعة تذكارية وسط أحياء المدينة اذ كان الأئمة السابقون قد أقاموا فى مكانه حصناً منيعا ولكن رجال القبائل أتت عليه وهدمته وبنى الأتراك على أطلاله أحد المستشفيات ولما عاد الامام يحيي الى عاصمة بلاده ودخلها دخول الفاتحين أمر بهدم البناء الجديد لكى يقيم مكانه « دار السعادة » وهو قصر واسع الرحاب فسيح الجنبات حسن التنسيق مزخرف بالزخارف والتخاريم البيضاء الناصعة وأقام الى جانبه قصراً آخر أعظم منه له شرفات واسعة ومشربيات أنيقة تحيط بنوافذه أطلق عليه اسم « دار الشكر » توجد فيه اليوم مساكن المليك الخاصة كما بنى فيه أيضاً مسجداً جميلا به سبع قباب بيضاء ومحلى بأعمدة رشيقة عليها نقوش وزخارف بديعة جمعت كلها من أطلال مدينة « مارب » كما شيد أيضاً برجا كبيراً خصص لضيافة الأمراء والزوار الذين يمرون بالعاصمة وعدة ثكنات للحرس اليمنى وبعض المكاتب

« والمقام » أشبه شيء بقصر «الكرملين» الروسى اذ توجد فيه قصور ومعابد وأبنية من شتى الأشكال ولشتى المخصصات وبه حديقة واسعة فيحاء تنبت فيها كل النباتات التى اشتهرت بها العربية السعيدة من لوز وقات وجوز

وبرتقال ونخيل وأعناب، وزهور ورياحين كما يوجد فيه أيضاً « المفرج » الملكى الصيفى الحسن التنسيق .

ويرى الانسان فى زاوية من زوايا الحديقة — حيث يقوم فوق الجدران برج هائل بالغ الضخامة متناهى القصر ـ سارية محطة « الراديو » التى هى الشىء الوحيد الذى يجعل اليمن على اتصال بالعالم الخارجى ويرفع رجال القبائل الذين يمرون أمامها أعينهم نحوها دون أن يفهموا شيئاً عنها ودون أن يسألوا عن سبب وجودها ولكنهم يقفون فى المساء مبهوتين للتطلع لمصابيح باب « المقام » التى توقد من تلقاء نفسها ويظنون انه ربما كان ذلك من سحر الجن الذين يخضعون لأمر « المتوكل على الله » . والقصر الملكى هو المبنى اليمنى الوحيد الذى يضاء بالنور الكهربائى وقد كان فيه فى عهد من العهود جهاز تليفونى لا أعرف على وجه التحديد من الذى أهداه لجلالة الامام ولكن يحى بن محمد الذى يحب دائما أن ينظر فى عينى محدثه ليستشف ماوراءها سرعان ماضاق ذرعاً بتلك اللعبة السخيفة الطائشة ! .

ولا يحتقر الامام مبتكرات المدنية الآلية ولو أنه لايرى فيها فائدة مادية ولما احتلت جنوده فى أواخر أيام الحرب العالمية الأخيرة مدينة تعز كانت هناك بين غنائم الحرب أربع سيارات فخمة وقد تقرر اهداء واحدة منها للامام يحيي وهكذا ظهرت السيارة الأولى فى طرقات صنعاء وبعد أن فحصها الامام بدهشة كبيرة وعناية عظيمة أمر بايداعها فى أحد المخازن وقد حدث أن نزل الامام فى أحد الأيام على رغبات راغب بك وزير خارجيته وقرر استعمال هذه السيارة للذهاب بها إلى المسجد ولما تقدمت السيارة الجميلة بسائقها نحو باب « المقام » سرعان ماتجمعت حولها الجماهير ولكن عندما ظهر المليك وهم بركوبها خرج « السيد قاسم » من وسط الجماهير واتجه نحوها وفى اثره جماعة من المتعصبين وبهامته الطويلة الممتلئة وعيونه التى ينبعث النور والشرر منها قام شيخ المسجد ورئيس سدنته ووجه كلامه الى الامام بصوت أجش قائلا : أتجرؤ يا امام الزيديين على ركوب هذه الآلة الجهنمية الممقوتة ؟

ولما كان الامام يحيي لايرغب فى إيجاد خلاف ذى صبغة دينية فانه أجاب

الرجل بقوله ! أنا ؟ حتى ولا افكر فى ذلك . . . . ثم وضع سيفه الذهبى على رقبته وهو ممسك به بيديه كالميزان على الطريقة البدوية وتوجه على قدميه نحو المسجد(١)

اما نوافذ الدور الأول المزخرفة بالزجاج الملون وبألواح الرخام الرقيقة فقد كانت كلها مضاءة وكانت تكسب « المقام » منظر مسرح من مسارح «الاوبريت» ولقد دخلنا الى البهو مخترقين الفناء الذى كان يستريح فيه رجال الحرس وكان هناك أيضا عساكر آخرون حفاة الأقدام مسلحون يجلسون القرفصاء حول نرجيلة فخمة يدخنون منها كل بدوره فاذا ما انتهى الواحد منهم أمسك الآخر بمبسمها ووضعه فى فمه بطريقة منتظمة بحيث كان الدخان المتصاعد منها يجلجل المياه التى فى قاعها .

ولقد كان السلم مزدحماً بكثير من الناس كما كانت عتبة البهو مملوءة بمجموعة طريفة من الأحذية المختلفة الألوان والأشكال والمقاسات وضعت فى غير نظام فكان فيها أحذية من الصنف الأوروبى وأحذية هندية وأخرى مغربية وأخفاف وطنية وصنادل مستطيلة الشكل واحذية لها رقبة من المطاط وشباشب مخططة وملونة باللونين الاحمر والاصفر وأحذية مقفلة من التيل الابيض من التى غزا بها اليابانيون موانىء الشرق وأسواقه ومما لاشك فيه أن حذائى كان يجب أن يأخذ مكانه إلى جانب هذه المجموعة الفريدة التى يندر أن يجتمع مثلها فى صعيد واحد قبل أن أتقدم وأطأ بقدمى سجاجيد الديوان الفخمة ويجب أن أقول أن ذلك كان معقولا وكان أمرا لابد منه بعد أن قطعت كل هذه المسافة فى طرقات صنعاء و فى الليل(٢) .

من هذا الوقت أصبحت على علم تام بتقاليد البلاط اليمنى وآدابه فكان

---

(١) هذه الحكاية غير معروفة فى اليمن ولا يعلم مصدرها .

(٢) يلاحظ على هذا أن جلالة الامام لم يستقبل المؤلف استقبالا رسميا خاصا وإنما كان استقبالا عاديا بخلاف ماحدث مع الاجانب فكان يستقبلهم فى صالون خاص كما يستقبل بقية الملوك الاخرين زائريهم .

يجب أن أقاوم كل دافع يدفعنى الى رفع الطربوش عن رأسى وبمجرد أن دخلت البهو الملكى كان على أن أدور بعينى لكى أبحث عن الامام ثم انقض على ركبتيه لتقبيلهما ولكن هذه أشياء من السهل التحدث عنها لا القيام بها ولا أدرى كيف نجحت أخيرا فى الهرولة حافى القدمين على البلاط الغير المستوى المغطى بسجاجيد فخمة وثيرة ولا كيف انحنيت حتى كدت أبلغ الارض بدون أن يسقط طربوشى عن رأسى أو بدون ان افقد توازنى وأنا اندفع نحو المليك الامر الذى كان — اذا حدث — يعتبر امرا غير لائق وغباوة وبلاهة مابعدهما.

بعد ذلك بحثت عن مكان خال أجلس فيه فوق الوسائد المصفوفة بطول جدران البهو الفسيح وأنا أحاذر أن لا أدير كتفى للمليك ثم جلست مربع الساقين اللتين سرعان مابدأتا تشعران بالكلل لأنهما لم تتعودا مثل هذه الجلسة وكان « الديوان » زاخرا بالأمراء والوزراء وكبار رجال الدولة ولكنى لم أكن أهتم بوجودهم لاهم ولا الكتاب الذين كانوا يتجمهرون أمام الباب تدفعهم الرغبة وحب الاستطلاع لمشاهدة الاستقبال الذى يستقبل به أمير المؤمنين أحد الأجانب الأوروبيين. ولم يكن فى البهو – فى نظرى – سوى الامام على أن حضور المترجم كان يعتبر دون شك حادثا سعيدا ولكنى ماكنت أعاق عليه أهمية كبرى اذ أنى عندما كنت أتكلم بلغتى كنت أوجه حديثى للمليك الذى كان يستمع لى باسما ويبدى برأسه علامات الموافقة فى انتظار فهم كلامى من المترجم وهذا ماكان يجب على أن أعمله أنا أيضا وأنا أصغى لأقواله.

كيف حالك ؟ . . كان هذا السؤال يصل الى غير مسموع كأنه آت من بعيد ولم يكن منتظرا فى حفلة استقبال مثل هذه الحفلة ولكنه كان مسألة اجراءات ولا شىء غير ذلك. ولما علم الامام أن صحتى جيدة وأن رحلتى كانت سعيدة موفقة ظهرت على وجهه علائم البشر وعلت ثغره ابتسامة رقيقة .

« انى أشكر جلالتكم لتفضلكم بالسماح لى بالمجىء لمشاهدة بلادكم الجميلة » .

« وانى لسعيد وجد مسرور بأن أراك هنا بيننا فلقد تحدثت الجرائد كثيرا عن اليمن عن غير علم وأسرفت وفى أثناء الخلاف الذى كان قائما بينها وبين الحجاز كتبت أشياء ما أنزل الله بها من سلطان وبلغ بها الأمر أن ذكرت أن الامام قد توفى وأن الأمير أحمد لاذ بالفرار من الميدان وسوف تكتب أنت ماستراه عيناك »

وكان الامام يحيى بن محمد يجلس فوق وسائد حريرية لينة وثيرة ويرتدى ملابس بيضاء فضفاضة وكان وجهه الأسمر تحيط به لحيته البيضاء المستديرة أما عيناه السوداوان فكان فيهما قلق كان يبدو من خلال نظاراته الشاحبة الزرقاء على أنه كان منشرح الصدر وهذا ما كان يؤثر فى الجو المحيط به ولم تمنعه ضخامة جسمه من أن يبدو حسن الصحة رغم سنيه الخمسة والستين ومع هذا فانه كثيرا ما يذاع عنه فى اليمن وفى الخارج وما يقال عنه من أنه رجل مريض وقد حدث أن انتهى به الأمرذات مرة الى الاعتقاد بأنه مريض وذلك عندما وصل الى صنعاء طبيب سلافى ودعاه الامام للكشف عليه اذ كان يشعر وقتئذ بشىء من التوعك وانحراف المزاج وقد أحزن هذا « الكشف » الطبيب السلافى حزنا عميقا فقد اكتشف علامات مخيفة لأمراض بعضها أشد هولا من البعض وقد تأثر الامام يحيى كثيرا عند سماعه هذا الكلام حتى أنه ترامى فوق وسائده مستسلما وطالبا معونة الله فجرى الناس اليه وهرعوا من كل صوب ولفوه فى أحد الأغطية ورفعوه من مكانه اما الخدم ورجال الخاصة والكتاب فقد تألف منهم نوع من المواكب الحزينة اتجه نحو مساكنه الخاصة وقد سرى النبأ سريان الكهرباء فى الحريم وأثار البكاء والنحيب والصراخ والعويل من النساء والأطفال وعند ذلك ضاق الامام ذرعا بما سمع وعيل صبره فوقف على قدميه صارخا لاعنا وانهال على

الموجودين ضربا وشتما وأخذ يوزع لكماته شرقا وغربا على من كانوا يحملونه وطرد الطبيب وكل من كانوا حوله شر طرده .(١)

أخذت فى الاشادة له بالاستعراض العسكرى العظيم الذى جرى فى يوم جمعة رمضان اليتيمة وأظهرت له اعجابى بالجنود الكثيرة العدد التى اشتركت فيه والجماهير الحاشدة التى شاهدته، فاجابنى بقوله : انك تقول ذلك لأنك رجل لطيف مهذب ولا شك عندى فى أنك تقول ذلك من باب التلطف والمجاملة لأنى شاهدت بعينى رأسى فى أحد الأفلام الجنود والجماهير التى لايحصى لها عدد والتى لايمكن أن تقارن بها جنودنا وجماهيرنا والتى تجتمع عادة فى حضرة الزعماء الأوروبين (وفى الحق أنه يوجد فى «المقام» جهاز سينمائى صغير وأغلب الظن أن السيد قاسم لم يره ولا علم له به !)

ثم تكلم الامام وشكر للدول التى تبدى عطفها على اليمن وقال ان علاقات اليمن مع جيرانه أصبحت طيبة للغاية وان الأمطار كانت غزيرة فى هذا العام مما يقوى الأمل فى محصول وفير ان شاء الله . ثم سألنى قائلا : هل كان الجو شديد الحرارة فى تهامة عند قدومكم وهل يشتد البرد فى اوربا فى هذا الفصل كما سألنى عما اذا كانت سيارتنا قد سارت بسهولة فى طرقات اليمن وعندما كنت أتحدث اليه عن الطريق المنشأ بين عدن وتعز واقول له ان الجزء الذى انشأه اليمنيون افضل من الجزء الواقع فى اراضى البلاد الواقعة تحت الحماية البريطانية يبدو عليه الزهو والسرور الذى يعبر عنه بهزة تبدو لها طيات قميصه وتنحسر عنها احدى قدميه وعند ذلك أحاول بدورى أن أمد قليلا ساقى اللتين كانتا تسببان لى ألما لايمكن احتماله .

ويطول بيننا الحديث ويتبسط ويتشعب فى مختلف النواحى حتى نلمس موضوعات ما كانت لتخطر لى ببال وكل ذلك والامام يصغى لأقوالى ولأوصافى للشمس التى تظهر فى منتصف الليل فى الصيف فى البلاد الأوربية الشمالية كما

---

(١) هذه القصة لا تعرف واذا كان قد حدث شىء من ذلك فهو مبالغ فيه ويستبعده العقل والعادة

أظهر له دهشتى عندما يؤكدلى أن العرافين اليمنيين يستطيعون قراءة المستقبل على عظام اكتاف الكبوش !

وكانت أمام الملك صينية نحاسية واطئة منقوشة بنقوش عربية ظريفة وضعت عليها ثلاثة أكوام من الريالات الفضية وهرم صغير من الصلب كأنه يقف حارسا لخاتمة الطريف الذى يبصم به كما كانت هناك بعض الاوراق وساعة مكتب (منبه)

وعندما يضع الامام يده على الأوراق الموجودة أمامه قيد البحث افهم أن جلسة الامام الطريفة قد انتهت واستأذن فى الانصراف

٨

الايمـان إلى اليمين

واليمن فى الوقت الحاضر — كما قال لى الامام — على وفاق مع جيرانه كلهم ويتكون حرس الامام على الاخص من رجال الجيش والجمارك اليقظين. وعساكر الملك اذا مادخلوا ثكناتهم الهادئة يزينون عمائمهم بباقات صغيرة من الريحان والياسمين. وفى استطاعة بلاد العرب أن تعيش أياما قليلة فى سلام وطمأنينة لان هذه الجزيرة المترامية الاطراف والتى تبلغ مساحتهاثلثى مساحة أوروبا والتى تتكون من مناطق نضرة وأراض عظيمة الخصب ومن صحراوات شاسعةواراض قاحلة جرداء تسكنها أجناس مختلفة كانت دائما تنهكها الخصومات والمنازعات الداخلية والحروب الاهليه وقد استطاع النبى محمد أن يفتحها كلها ويوحد بينها وأن يفرض على سكانها دينه الجديد ولكن سرعان ماتولدت بعده الاختلافات وعادت الخصومات سيرتها الاولى واشتعلت نيران الحروب الاهلية.

ولقد تكلم أحدهم — ولا أعرف على وجه التحديد من هو — عن حدود اليمن فقال ان هذه الحدود ليست معينة أو محددة تحديداً كاملا الا من جهة البحر لان اليمن الذى هو أخصب جزء فى البلاد العربية تربة والذى هو اغناها وانضرها واكثرها سكانا واحسنها مناخا كان فى كل العصور مطمع الانظار ومحل الغزوات فدخله الرومان والسوريون والاحباش كما غزاه الفرس والمصريون وكما فتحه الاتراك مرتين ومع ذلك فلم يعمر به طويلا اى مستعمر من هؤلاء المستعمرين وعندما استطاع اليمن أن يبقى مستقلا كانت حدوده تتغير دائما فكان ملوكه فى بعض الاحيان لايسيطرون الا على صنعاء وما حولها من الهضاب والمرتفعات وأحيانا كانوا يبسطون سلطانهم على مساحات شاسعة من الاراضى كانت تشمل نجدا والحجاز والعسير

وعـدن وحضرموت وأراضى عمان وهى منـاطق تتصل بالبحر الاحمر والمحيط الهنـدى وخليج فارس . « واليمن » معناه « بلاد اليمين » على حد قول بعضهم لانه اذا اتجـه الانسان من الـكعبة الشريفة التى تقوم فى وسط مدينة مكة نحو الشرق كانت العربية السعيدة إلى يمينه . وبعد أن لحق النبى محمد بالرفيق الاعلى سرعان ما تمسك اليمنيون من سكان الجبال بالمذهب الشيعى الزيدى نسبة الى زيد حفيـد على بن ابى طالب وخطوا على علمهم كلمة فاصلة حاسمة هى « الايمان الى اليمين » .

اما حـدود اليمن الطبيعة فى الوقت الحاضر فهى دائما محل نزاع و مثار مناقشة وجـدال لان رجال السياسة قد فقدوا كثيراً من مرونتهم ومع ذلك فان « معاهدة الطائف » التى عقدت بين الحجاز واليمن بعـد النزاع الذى قام بينهما فى سنة ١٩٣٤ قد خصصت صفحات متعددة بينت بكل دقة الحـدود التى تفصل بين اراضى الامام يحيى واملاك الملك ابن السعود وكذلك قد تم بعض التحسن من جهة الجنوب لان الحالة المتعبة التى دامت من نهاية الحرب العظمى الاولى والتى طالما اثارت حوادث دامية قد انتهت بتوقيع معاهدة الصداقة الانجليزية اليمنية ولـكن الحدود الشرقية(١) من ناحية بحر الرمال الذى لا آخر له ولا نهاية قد بقيت متأرجحة رجراجة وغير ثابتة ولامستقرة كأنها ظل أحدالـكثبان الرملية فهى تتغير حسب مزاج قبائل الصحراء والنصف الهمجية على أن هذه القبائل اذا تركت وشأنها لاتقوم بخلق المتاعب ولاتؤذى احدا واغلب الظن ان تلك القبائل اذا لم تـكن موجودة فى مناطقها لما تغيرت حال اليمن عما هى عليـه فى كثير ولا قليل ولانهم اذا قاموا بدفع العشور وهم على ماهم عليه من الفقر المدقع لمـا زادت ميزانية الامام الا قليلا ومن المعلوم ان مالية الامام يحيى ناجحة مزدهرة فهو يحصل الضرائب بمنتهى الشدة وفى غير هوادة كما انه ينفق بمنتهى اليقظة والحزم ولا يستطيع انسان

---

(١) المفهوم من معاهـدة صنعاء بين بريطانيا العظمى والمملـكة اليمنية ان رضى الطرفان بالوضع الحاضر مؤقتا وفى خلال مدة المعاهدة يحـلان المشاكل الخاصة بالحدود جميعها

ان يحصل على بيان رسمى للميزانية اليمنية التى علمها عند الامام وحده ومع ذلك فيمكن تقدير ايرادات الحكومة بنحو الثمانية الملايين من الريالات وهذا لبس بالشىء الكثير ولكن يقابل ذلك ان المنصرف لايزيد على الاربعة الملايين من الريالات وفى الحق ان الحكومة اليمنية لاتقدم على المغامرات فى الشئون السياسية وتدفع لموظفيها رواتب ضئيلة تافهة تصل فى حالات شاذة الى اربعين ريالا فى الشهر وهى تدبر المصروفات الحربية بحزم وبمنتهى القصد .

وكذلك الحال فى التجارة الخارجية فانها قليلة نادرة ولو انها ناشطة فان أسعار البن والجلود قد تدهورت ويلاقى تصدير الاذرة والسمسم والقات والزبيب بعض المصاعب ولكن يقابل ذلك ايضا ان الواردات الى اليمن نادرة لاتكاد تذكر وهى تنحصر فى قليل من غاز الاضاءة والدخان والكبريت والسكر وبعض المنسوجات الرخيصة من المصنوعات اليابانية او الروسية وفضلا عن ذلك فان الامام قد اضاف اخيرا الى قائمة البضائع الغير المرغوب فيها كالنبيذ والمشروبات الروحية والآلات الموسيقيه ولعب الاطفال والالعاب النارية — اشياء اخرى من التى من الممكن ان تحل محلها المنتجات الوطنية .

وقد فرض الدين ضريبة العشور على المسلمين حتى انهم اذا لم تكن هناك سلطة شرعية لجباية هذه الضريبة منهم شعروا بالحرج امام ضمائرهم ويقول اليمنيون ان الصلاة توصلهم إلى منتصف الطريق الى بيت الله والصوم يقودهم الى بابه واما العشور فانها رسم الدخول فيه ! .

ولا تقعد السلطة المنوط بها تحصيل هذه الضريبة عن المطالبة بها ولا تهمل فى اداء واجباتها وقد حدث اذ وجد اليمنيون انفسهم عدة مرات فى تاريخهم امام سلطتين كانت كل منهما تدعى لنفسها حق جباية هذه الضريبة وليست لدى الزيديين اية شبهة فى هذا الامر فالامام هو حاكمهم المطلق وولى الامر فيهم الذى اختاروه هم انفسهم بمطلق الحرية وهو رئيسهم المدنى والدينى والرجل المقدس « المتوكل على الله » وهم مقتنعون كل الاقتناع بأنه لايفرض عليهم قانونا من عندياته ولكنه يعمل جهده على ان يحترم رعاياه القانون

السماوى الذى فرضه عليهم دينهم ونزل به كتابهم المقدس .

ويتمتع الملك الى جانب صفته المدنية بسلطة عليا دينية يستمد منها قوة لايستهان بهـا فالزيديون يعظمونه ويوقرونه ويطيعونه فى كل ما يأمرهم به ويدفعون له الضرائب والعشور عن طيب خاطر ويحاربون فى صفوف جيشه عند اول اشارة تصدر منه لانه بهـذا امرهم الله الذى اوصاهم باطاعة ولى الامر فيهم حتى يضمنوا لانفسهم جنة الخلد وما فيها من نعيم مقيم كما يقدره ويحترمه بقية رعاياه من اليمانيين الغير الزيديين من شوافع واسماعيلية وغيرهم وبدو الشرق .

لقد راى النبى محمد بثاقب فكره وبواسع حكمته ان يعين الخليفـة الذى يليه ومع انه كان قد اصطفى من سنين خلت كوزير له ابن عمه الشاب على الذى كان اول من آمن به واتبع دينه وتزوج من ابنته فاطمة الا انه قد حدث انه بسبب الدسائس التى حيكت له نزع الصولجـان من يده وعين ابو بكر خليفة للمسلمين كما عين بعده عمر الذى اتخذ لنفسه لقب « أمـير المؤمنين » وهو اللقب الذى يخلعه الامام يحيي على نفسه وفى عهد هذا الخليفة انتشر الاسلام فى بلاد كثيرة واتسعت فتوحات المسلمين حتى انهم فتحوا ستة وثلاثين الف مدينة وحصنا وشيدوا الفا واربعمائة مسجد .

وعندما توفى عمر نجحت عائشة (١) فى الكيد لعلى واستطاعت حرمانه من الخلافة ورشحت للخلافة بدلا منه عثمان بن عفان ولـكن عندما مات هذا استطاع على ذلك الرجل الحكيم الصالح الكريم والفارس المقدام والبطل المغوار ـ الاستيلاء على عرش النبى ومع هـذا فان عائشة لم تلق سلاحها بل ظلت تناوئه وتناصبه العداء حينا من الدهر وأثارت ضده الفتن والاضطرابات كما شجعت بعض المطالبين بالخلافة على الخروج عليه والقيام ضده على أنه لم يلبث أن قتل بيد أحد الخوارج أمام مسجد الكوفة وقد انقسم المسلمون بعد وفاته الى معسكرين عظيمين سنيين وشيعيين فكان السنيون يعترفون

---

(١) المعروف فى التاريخ أنه لم يكن لعائشة رضى الله عنها أى دخل فى هذا الموضوع

بشرعية خلافة الخلفاء الثلاثة الأول أبو بكر وعمر وعثمان وأما الشيعة فانهم كانوا لايقرون ذلك ويقولون بانحصار الخلافة فى على وأولاده وذريته .

وقدأصبح سكان الهضاب اليمنية الذين كان النبى قد أرسل لهم عليا ليهديهم للاسلام من الشيعة وألفوا المذهب الزيدى نسبة إلى زيد أحد أحفاد على واستمروا يختارون ملوكهم من بين أحفاد الرسول بينما بقى معظم سكان تهامة من أهل السنة واعتبروا الزيديين من الخوارج ولذلك استمر النزاع قائما بينهم ولم تخمد نار الحروب بين الفريقين وعندما قام «لودفيك دى ڤارتيما» برحلته الجريئة الى اليمن كان الخلاف بالغا أشده بين الفريقين .

ولا يعجب القارىء اذا علم بأنى أخذت معى كدليل لى فى سفرى الى بلاد الامام يحيى كتابا وضع من نحو أربعمائة سنة وذلك لأن الكتب التى وضعت عن هذه البلاد قليلة ونادرة بسبب العزلة التى يعيش فيها هذا البلد أما «الدليل» الذى وضعه ذلك السائح البولونى (نسبة الى مدينة بولونية الايطالية) فهو كتاب شائق لذيذ عظيم الأهمية وفضلا عن ذلك فانه ربما لايخطر ببال أحد أن كثيرا مما رواه فيه هذا الرحالة من الأوصاف والحكايات لاتزال اله لى اليوم قيمته .

ولقد كان «دى ڤارتيما» هو أول أوروبى نزح الى بلاد اليمن وأول من نشر الأخبار عن مدنها وسكانها ومزروعاتها ومناخها فقد ابحر من مدينة البندقية فى عام ١٥٠٠ م . أو بعد ذلك بقليل مدفوعا برغبته الشديدة فى « تغيير مناظر بلاده ومحل اقامته ولكى يرى بلادا جديدة ويتعلم اشياء جديدة » . وكتابه هذا كتاب رجل مكتشف جليل القدر جرىء مقدام قوى القلب دقيق الملاحظة نافذ البصيرة ومحدث حلو الحديث ذى تأثير عظيم قد قام برحلته هذه فى اوقات كان لا يقوم فيها بالرحلات البعيدة الا التجار والغزاة الفاتحون وكان سفره أولا الى مدينة دمشق حيث تعلم شيئا من اللغة العربية ثم انخرط فى سلك فرقة عسكرية من فرق المماليك كانت مكلفة بحراسة قافلة الحجاج المسافرة الى مكة والتى كانت تتألف من ستين الف رجل وخمسة وثلاثين الف جمل وقد زار الأماكن المقدسة الاسلامية ومن مكة سافر الى

جدة حيث ابحر على ظهر سفينة من سفن الحجاج العائدين إلى بلاد العجم ووصل الى عدن فى خريف عام ١٥٠٣ م .

ولقد احتل الانجليز عدن بعد هذا التاريخ بثلاثمائة وستة وثلاثين سنة ولكن كانت تبدو على هذه المدينة بعد هذه الفترة الطويلة المدى مظاهر القوة وعلائم المنعة ويقول عنها «دى ڤارتيما» انها «امنع مدينة رأيتها فى حياتى على وجه البسيطة» كما يقول عنها انها «عاصمة العربيه السعيدة»

وفى ذلك الوقت كان اثنان من الملوك يتنازعان عرش اليمن احدهما الملك ظافر سلطان عدن وثانيهما احمد بن ناصر امام صنعاء وقد قبض على رحالتنا «دى ڤارتيما» فى اليوم التالى لوصوله بتهمة التجسس للبرتغاليين الذين كانوا قد بدءوا رحلاتهم الجريئة الى شواطىء الهند وبلاد العرب وقد بقى فى سجنه مدة طويلة حتى نجا من الأسر بأعجوبة . وبعد شهرين قضاهما فى السجن كبلوا قدميه بالحديد واركبوه على ظهر احد الجمال ونقلوه فى مدى ثمانية ايام الى الروضة حيث كان السلطان يتأهب للقيام بحملة حربية على صنعاء وقد حكى (دى ڤارتيما) للسلطان انه صار مملوكا فى دمشق وانه اسلم وحسن اسلامه وأدى فريضة الحج وعند ذلك أمره السلطان بالنطق بالشهادتين ولكن دى ڤارتيما المسكين كان منهوك القوى ولم يستطع نظراً لضعف جسمه وفقدان ذاكرته النطق بهما بطلاقة ولذلك اعاده السلطان الى السجن بعد أن شدد عليه الحراسة . وبعد يومين تحرك جيش السلطان كله مرة واحدة نحو صنعاء وكان هذا الجيش يبلغ عدده ثمانين الفا من الجند بينهم ثلاثة آلاف من العبيد الاحباش الذين تدربوا على حمل السلاح وخمسة آلاف جمل ولما يئس (دى ڤارتيما) من الخلاص من الاسر فكر فى حيلة ظن أن فيها نجاته اذ تصنع الجنون وعندئذ سمح له بالخروج فى الطريق مع بقاء الاغلال والقيود فى يديه وقدميه (ولا يزال المجانين يسيرون بهذه الحالة الى اليوم فى كثير من المدن اليمنية) وقام بكثير من المحاولات لالفات نظر احدى زوجات السلطان اليه ولما أن رأته السلطانة وهو يعرى جسده فى أثناء تصنعه الجنون أخذتها الشفقة عليه لانها لم تر فى حياتها جسداً أشد بياضاً من جسده وأمرت

بنقله الى احدى غرف قصرها الارضية لتشديد الحراسة عليه وكانت تقوم بزيارته كل ليلة مع وصيفتها وتحمل اليه معها اطيب المأكولات وأفخر العطور وفى ذلك يقول « دى فارتيما » : « بدأت السلطانة تتنازل بالنزول الى الغرفة الارضية التى كنت فيها كل ليلة فى نحو الساعة الثالثة أو الرابعة وكانت تحمل لى معها دائما مأكولات طيبة ولما كانت تدخل حيث كنت مسجونا كانت تناديني بقولها : تعال هنا يالودفيك ثم تسألنى قائلة : اتشعر بالجوع ؟ وكنت من شدة جوعى اقول لها نعم وكنت اتجه نحوها بقميصى ولكنها كانت تقول لى : « لا . ليس هكذا . بل اخلع عنك قميصك » وكنت اخلع قميصى وأعرى الجزء الأعلى من جسدى لارضائها وكانت السلطانة المسكينة تبقى امامى ساعتين وهى تتأمل جسدى وكنت انا ايضا اتأملها كما لو كانت احدى عرائس البحر وهى تبكى وتنتحب وتتضرع الى الله قائلة : ياالهى ! سبحانك اللهم وبحمدك جلت قدرتك انك خلقت هذا الرجل ابيض كأنه قطعة من الشمع اما زوجى فقد خلقته أسود فارزقنى مولودا ابيض اللون كهذا الرجل ». وكانت تكرر كلمات كثيرة بهذا المعنى ثم تأخذ فى البكاء ثم تنصرف. وقد وعدتنى بأنها بمجرد وصول السلطان سوف تسعى لديه لفك عقالى واخلاء سبيلى »

وفعلا نجحت السلطانة فى جعله يستعيد حريته وقد تمكن «دى فارتيما» من العودة الى عدن حيث استطاع الاتفاق مع قبطان احدى السفن التى كانت على وشك الرحيل الى بلاد فارس والهند على السفر معه ولكن لما كان لايزال باقيا على سفر السفينة شهرا كاملا فانه قرر زيارة بلاد العربية السعيدة وقام برحلته اليها على ظهر جواد وكانت أول مازاره هى امارة لحج التى شاهد فيها كميات لا يحصى لها عدد من النخيل والتى رأى فيها الكثير من اللحم والقمح » كما زار « المقرانة » حيث « يحوز سلطانها من الذهب ما يزيد على حمل مائة بعير » كما زار ايضا « يريم » (التى يسكنها شعب من الزنوج السود والتى يوجد فيها نوع من الاغنام المخاصى السمينة الكبيرة الذيول التى يزن ذيل الواحد منها نحو الاربعة والاربعين رطلا وليست لهذه الاغنام قرون وهى بسبب ضخامتها لاتقوى على الجرى وفيها ايضا نوع من العنب الابيض

الخالى من البذر لم اذق فى حياتى كلها عنباً احلى او اشهى منه » وقد وصل «دى فارتيما» بعد ذلك الى صنعاء حيث ادهشه اكثر من كل شىء أمران أحدهما سورها الكبير المتناهى الضخامة الذى كان يتسع لسير ثمانية من الخيول الى جانب بعضها وثانيهما عادة احد ابناء السلطان الغريبة الذى (كان يشتد هياجه وغضبه فيعض الناس ويأكل من لحومهم حتى يشبع ثم يتركهم). وقد شاهد فى مدينة (تعز) مسجداً بنى على طراز كنيسة القديسة (ماريا روتوندا) فى مدينه روما كما لاحظ وجود أسواق عظيمة فى مدينة (زبيد) تباع فيها بضائع واشياء متنوعة تشحن الى البلاد الاخرى .

وقد زار (دى فارتيما) ايضا فى هذه الرحلة مدينة (آنس) التى تقوم بين جبلين يتوسطهما واد بارع الجمال وارف الظلال وفيها نافورة جميلة وقد نصب فى ذلك الوادى سوق كان يقصده الناس من هذا الجبل ومن ذاك وقليل هم التجار الذى كانوا لا يتشاجرون مع بعضهم والسبب فى ذلك هو ان التجار الذين يسكنون الجبل الغربى كانوا يطلبون الى سكان الجبل القبلى ان يؤمنوا مثلهم بمحمد وبخلفائه الاربعة بينما كان الآخرون لايريدون الايمان الا بمحمد وعلى ويقولون بان الخلفاء الآخرين ابا بكر وعمر وعثمان غير شرعيين .

ويبلغ عدد الشوافع القاطنين فى تهامة نحو ثلث سكان الشعب اليمنى ويعتبر القرآن كتاب الشريعة المقدسة سواء عند سكان الهضبة اليمنية أو سكان السهول الساحلية ولكن هذا لم يمنع مق أختلاف وجهات النظر فى شرعية حكومة صنعاء . والزيود الجبليون هم الاقوى جانبا فتحوا تهامة وغزوها بحد السيف ولكنهم مقتنعون تمام الاقتناع بانهم لم يستطيعوا غزو نفوس سكانها . وقد تركز الدفاع عن اليمن وأعد كله فوق المرتفعات وذلك اولا لاسباب حربية فنية وثانياً (١) لان الزيديين قليلو الثقة باخلاص سكان السهول الشوافع

---

(١) فى كلام المؤلف هنا خلط للحقائق فاليمن وحدة لا تتجزأ شعور كل أهليها واحد والثقة متبادلة بينهم .

اذ أن هؤلاء عندما زحفت جيوش ابن السعود فى اثناء الخلاف الاخير بين الحجاز واليمن لم يترددوا فى ترك تهامة فى ايدى الغزاة الفاتحين بل واستقبلوا السعوديين الذين جاءوا لمحاربة الامام يحيي بكل ترحاب ولم يدهش الزيديون لذلك لانهم كانوا يعرفون فى الشوافع عدم الاخلاص لهم على انه عندما أخلى الجيش الوهابى الاراضى المحتلة بعد عقد الصلح لم يعمد الزيديون الى الانتقام من مواطنيهم بسبب مسلكهم بل انهم على العكس من ذلك اتفقوا مع مواطنيهم الاسماعيليين الذين هم قليلو العدد فى البلاد اذ لا يزيدون على الاثنى عشر الفا ولكنهم يسكنون مرتفعات «حراز» فى الشمال الشرقى الى الحديدة ويستطيعون بحكم موقع بلادهم الدفاع عن الهضاب والمرتفعات اليمنية .

والاسماعيليون يلفتون انظار الباحثين فى الشئون الاسلامية من عدة قرون لان لهم طقوسا دينية يجب ان يكون لدى الانسان شيء من الحيطة اذا ما تحدث عنها وهم يقيمون فى أجزاء كثيرة من بلاد العرب والهند ويقال ان منهم من يسكنون فى بعض اجزاء الروسيا .

ويقال ان الامام يحيي قد ارسل الى ناحية « حراز » جنوده فجأة لتجريد الاسماعيليين من اسلحتهم ومصادرة كتبهم المقدسة التى ملأوا بها خمسين صندوقا كبيرا واعتقلوا اربعين من رؤسائهم اخذوهم اسرى الى صنعاء وفرضوا عليهم اما ان يعتنقوا المذهب الزيدى او ترك بلاد اليمن الى غير رجعة ولقد مات كمداً وغماً بعض هؤلاء الرؤساء الاسرى الذين اضطروا الى اختيار احد أمرين أحلاهما مر ! !

وقد بقى الاسماعيليون فى اليمن ولكن هل يجب أن يثق أنسان بهؤلاء الزيود الجدد ؟

وقد سار الامام يحيي على طريقة اخذ الرهائن من بعض القبائل وليست هذه هى الطريقة المثلى التى من الممكن اتباعها لتكوين وحدة روحية متينة فى اليمن بل انها على العكس تحيي الاحقاد وتجدد الخلافات القائمة بين المذاهب الاسلامية المختلفة ولكن يبدو لى انها الطريقة الوحيدة التى تستطيع حكومة

تقوم سلطتها على شعور الشعب الدينى ـ أن تستعملها لكى تكون فى مأمن من دسائس اقليات تخالفها فى العقيدة الدينية .

ويبلغ عدد هؤلاء الرهائن أكثر من الف منهم ثمانمائة فى صنعاء ومائتان فى الحديدة وكلهم من الاحداث الذين تتراوح اعمارهم بين العاشرة والثامنة عشر يمثلون كل القبائل الغير الزيدية وهذه القبائل تستبدلهم كل بضعة اشهر بغيرهم من الصبية . ويقيم الرهائن فى مدينة صنعاء فى « القصر » وهو حصن العاصمة اليمنية المنيع وهذا الحصن قلعة عظيمة تكسبها مداخلها الملتوية وجدرانها العالية الخالية من الفتحات منظرا قاسيا مخيفا ولكن مدافعها الموضوعة فى ابراجها الجانبية لا تطلق الا للتحية وفى المواسم والاعياد الرسمية

ويجد الانسان فى « القصر » شيئا من كل شىء ففيه دار سك النقود وعماله من اليهود وفيه مصنع حربى جرب فيه مرة صب أحد المدافع الذى انفجر عند أول طلقة اطلقت منه كما أن فيه مخزنا للادوات والآلات الحربية الغير المستعملة وفيه غير ذلك كله ثكنة لمفرزة من الجنود ومدرسة للايتام الذين يعلمهم الامام القرآن وأصول الدين ويلبسهم بذلة صفراء وفيه علاوة على ماذكر سجن يودع فيه المحجوزون على اختلاف أنواعهم وفيه الرهائن الذين وضع لهم نظام وسط بين نظام الجنود ونظام الايتام ونظام المسجونين فهم يشتركون احيانا فى الاستعراضات العسكرية ويسيرون فى صفوف الجيش بدون أن يحملوا سلاحا وفى « اليمن » يخجل الشاب كل الخجل اذا ما ظهر امام الجمهور بدون أن يحمل على الاقل خنجرا فى خصره وهو يسير بين صفوف الجنود المسلحين حتى اسنانهم .

والقبائل التى أخذت منها هذه الرهائن هى التى تتولى الانفاق على طعامهم وملبسهم وكذلك تفعل اسر المحبوسين فى الجرائم العادية فهى التى ترسل اليهم المأكل والملبس . وألا يكفى ان تقدم لهم الحكومة من عندها المسكن والقيود ؟

ومما لاشك فيه ان هذه الحال تسبب لليمن بعض المتاعب اذ تجعله جامدا

وتتركه واقفا حيث هو فى عالم كل مافيه يتحرك ويسير ويخطو بخطوات واسعة الى الامام فالحاضر هنا انما هو صورة للماضى ولا شىء يسىء الى اليمنى ويجرح عزته وكرامته اكثر من ان تتمنى له مستقبلا لايخالف حاضره !!

ولقد بقيت الثقافة العربية المجيدة فى اليمن كما كانت منذ عدة قرون خلت فهى تنتقل بين النصوص العتيقة والكتب القديمة البالية والاوروبى الذى يسعده الحظ بالتحدث الى اليمنيين المثقفين بلغتهم والذى يستطيع التغلغل والوصول الى افكارهم وآرائهم فى المسائل الفنية والعلمية — يشعر بدهشة عظيمة عندما يجد نفسه قد انفلت الى القرون الوسطى فالعادات والزراعة والفنون قد بقيت على حالها كما كانت فى الماضى . ولما استعاد اليمن استقلاله بقى فى معزل عن جميع التيارات الخارجية وتجنب كل اتصال او احتكاك مع الشعوب الاخرى التى تفوقه مدنية ولكن اى عجب فى ذلك أليس افرادها من غير المؤمنين ؟ واليس الاتصال بهم يستوجب فقدان كل طهارة ؟

وليس من شك فى انه سوف يأتى يوم ان عاجلا او آجلا يقوم فيه — كما حدث فى بلاد اسلامية اخرى — صراع قوى عتيد بين عوامل التقدم الحية والقوات الدينية القديمة وعندئذ لا يعلم الا الله وحده اذا كان هذا الجزء من بلاد العرب سيطلق عليه اسم «العربية السعيدة» او أى اسم آخر .

٩

الـكنيس المخبوء!!

فى فجر أحـد الأيام نفق حمـار أسود اللون فى طريق من طرقات مدينة صنعاء فى أثناء قيامه بعمله اليومى المضنى اذ كان يحمل الى السوق حملا ثقيلا من تلك الأقراص الـكريهة الرائحة التى هى خليط من القش وروث الجمال التى يتألف منها النوع الوحيد من وقود أفران البلاد. ولما رآه صاحبه قد عجز عن مواصلة السير ووقف وتعثر دون أن تستحثه الصيحات العالية ولا ضرب العصى ثم لم يلبث أن وقع على الأرض لاحراك به خلـع عنه حمـله الذى ناء به وتركه حيث هو بعد أن وضع على مقربة من فمه حزمة من الحشيش الأخضر على أن الدابة المسكينة لم يكن قد بقى فيها نفس ولم يكن فيها قوة على تناول زادها الأخير

ولما كانت معظم طرقات صنعاء ومنهـا ذلك الطريق الذى سقط فيه ذلك الجحش المسكين لا يزيد اتساع الواحد منها على اتساع أى زقاق الا أنها تبدو كثيرة الحركة وتزدحم دائما بالرائحين والغادين فانه يمكننا أن نتخيل ما يسببه من الضيق والغم وجود تلك الجيفة التى تعرقل حركة المرور والتى سرعان ما تنتفخ وتفسد الجو برائحتها الـكريهة المؤذية دون أن يهتم انسان بتحريكها أو نقلها من مكانها حتى الغد اذ أن اليوم هو عيد اليهود واليهود هم وحدهم المـكلفون بنقل الجيف من طرقات صنعاء

وعندما كان اليمنيون يمرون من تلك الجهـة كانوا يديرون وجوههم الى الناحية الأخرى ويسدون انوفهم وهم يحاذرون ان يلمسوا الدابة النافقة حتى ولا باطراف احذيتهم وهم اثناء ذلك يصبون لعناتهم على اليهود الذين يفضل الواحد منهم الموت على ان يحرك اصبعا من اصابعه فى يوم السبت . ومع ذلك فهل لم يخطر ببال العرب ان يحل احدهم مرة واحدة محل اليهود ويتطوع بنقل هذه الجيفة من مكانها ؟

اما اليهود فى ايام اعيادهم فلا يظهر لهم اثر فى شوارع المدينه بل يبقون فى حيهم البعيد ويقبعون فى دورهم المطفأة الانوار وفى كنسهم التى لا يمكن ان يتبينها المارة لعدم وجود علامة تميزها عن بقية المساكن ويلبسون أفخر ما عندهم من الملابس ويشربون النبيذ ويستريحون . . . وكل مايسمح به ليهود اليمن هو ... شرب النبيذ والراحة فى يوم السبت ولاشىء غير ذلك .

أما القيود المفروضة عليهم فانه لايحصيها عد اذ ان كل شىء يشعرهم فى كل لحظة بالذلة و المسكنة وبالانحطاط ولايسمح لهم العرب بالسكنى فى مدينتهم بل لقد أجلوهم الى « احياء اليهود » الخاصة لكى يبعدوهم على قدر المستطاع عن انظار المواطنين . ويقوم حى اليهود فى تعز فوق احد التلال واما « الحى » الذى يقيمون فيه فى « معبر » فهو قرية صغيرة ضرب حولها سور وتبعد بضع كيلو مترات عن مساكن المدينة وأما « حى اليهود » فى صنعاء الذى يقال له « قاع اليهود » ففى احدى ضواحيها التى كادت تربطها بالمدينة المبانى التى شيدها الاتراك تدريجا فى ايام حكمهم لليمن

ومما لاشك فيه أن اليمن ليس هو وحده البلد الذى يضطهد فيه اليهود والذى يلاقون فيه مثل هذه المعاملة الشاذة لأن المسكنة والعزلة التى ضربت عليهم كانت حظهم المعتاد منذ الازمان الماضية (عندما لايطردون من البلاد كما هو حادث فى هذه الايام) على انهم كانوا يوماما سادة هذه البلاد التى لا تزال تسىء اليهم وتضطهدهم كما كانت تفعل فى القرون الوسطى

وفى الحق انه لم تبق اية ذكرى طيبة لاستعمار اليهود لليمن لان اشهر ملوك بنى اسرائيل الذى كان يلقب باسم (ابى نحواس) بسبب الضفائر التى كانت تتدلى من صدغيه ـ كان يضطهد نصارى (نجران) أشد اضطهاد ويقال انه التى بعشرين الفا منهم فى النيران المستعرة ولكن ليست ذكرى هذه القسوة الوحشية وذلك التعصب الدينى الشنيع هى التى تحمل اليمنيين على أن يفرضوا على اليهود حلق رءوسهم وترك لحاهم مرسلة على اصداغهم بل ان ما يهتم له الزيديون هو أن يكون ثمت ما يميز اليهودى عن العربى المسلم . فلا عمائم لليهود لأنهم لايلبسون الا قلنسوة سوداء ولا ملابس مزركشة بل قفطان من التيل أو الصوف ! !

ويمكن القول بان العرب لا ينظرون الى اليهود الا نظرة الاحتقار والاشمئزاز . ولكن ترى من عساه يشكو فى اليمن من معاملة أسوأ من هذه المعاملة ؟

لا أحد ... فارق هنا يكاد يكون اسما لا معنى له والعبيد القلائل وكلهم من الاحباش يعاملون معاملة رحيمة ويعيشون عيشة قد يغبطون عليها من كثيرين من الاحرار فهم يندمجون فى الاسر وتلحق النساء بالحريم وينتهى الامر برجالهم أن يصيروا خدما مخلصين لسادتهم ومالكيهم

ورغما من سهر الدول ويقظتها لا ينقطع تجار العبيد عن مزاولة تجارتهم الذميمة الممقوتة فهم يسوقون العبيد فى جماعات صغيرة الى الجهات الصحراوية المقفرة على شواطىء البحر الاحمر ويركبونهم (السنابيك) التى تنقلهم الى الشواطىء العربية وشواطىء خليج فارس ويقال ان النخاسين لخوفهم من ان تدركهم سفن البوليس المخصص لمنع تجارة الرقيق اعتادوا أن يربطوا حجرا كبيرا فى قدم كل عبد حتى يستطيعوا اخفاء حملهم بالقائه بسرعة فى البحر اذا ما اقترب منهم مطاردوهم ولا ادرى اذا كان بعض هذه (السنابيك) لا يزال يظهر امام الشواطىء اليمنية الى الآن حيث ان بضاعتها اصبحت غير مرغوب فيها

ومما لا شك فيه أنه كانت هناك عبودية حقيقية فى وقت من الأوقات ولكنها سرعان ما فقدت فى اليمن كما فى غيره من بلاد العالم الاسلامى الكثير من أشكالها الكريهة اذ ان العبيد كان فى مقدورهم دائما أن يتحرروا وأن يعملوا فى الصناعات والمهن التى تعافها نفوس العرب وهنا فى اليمن طائفة خاصة من الخدم يقال لها (الاخدام) تتكون من أناس من شتى الملل والنحل هم خليط من كل سلالة ومن كل جنس تقوم باعمال مختلفة فمنهم القصابون والحلاقون والحجامون والختانون وعمال الحمامات العامة والحمالون ومفرغو السفن فى الميناء والنسوة اللاتى يعملن فى تنظيف البن وفرز حباته ومما لاشك فيه أن حالتهم الاجتماعية لا تدعو للشفقة وعلى الاخص اذا كانوا مسلمين اذ انهم يتمتعون بكافة الحقوق المدنية ومنها امتلاك العقارات .

ولقد سمح لليهود بان يتملكوا منازل يسكنونها على شرط أن تكون ذات شكل متواضع وان لا تتكون الا من طابقين اثنين والواقع ان الانسان سرعان ما يلاحظ عند زيارته للمدن اليمنية ان لدور اليهود منظرا يختلف كل الاختلاف عن منظر القصور اليمنية ذات الزخارف الكثيرة ونحن فى غنى عن القول بان قاع اليهود اذا ماقورن باحياء العاصمة الأخرى لايعد شيئا مذكورا وعلى الاخص بسبب خلوه من المساجد الجميلة ذات القباب الفخمة والمآذن الرشيقة وما تعطيه لها من جمال وابهة وجلال

وفى الحق انه توجد بعض الكنس فى اليمن وعددها لابأس به ولكن « الكنيس » لا يجب أن يمتاز عن الدور فى شيء ولا يجب أن تبدو فوقه اية علامة خارجية تميزه عن منازل « قاع اليهود » لأن منظره يسبب الملل وتشمئز منه نفوس اليمنيين وهكذا اصبحت « الكنس » مخبوءة ومحجوبة عن العيون وكثيرا ما يلاحظ الانسان وهو سائر فى طرقات حى اليهود القذرة الضيقة جمهورا صغيرا يخرج من باب صغير فى أحد المبانى هم رجال نحاف الجسوم صفر الوجوه ونساء يغطين رءوسهن بمناديل كبيرة سوداء اللون طرزت حوافيها بالفضة واطفال يحملون فوق ملابسهم كل نوع من انواع التمائم التى تقيهم شر الجن ولا يخرج كل هؤلاء من حفلة استقبال أو من احدى الولائم بل من « الكنيس » وهذا الباب الصغير الذى يخرجون منه يؤدى الى فناء طليت جدرانه بالجير وبه بعض مكاتب وغرف صغيرة وفى آخره يفتح باب المعبد وهو غرفة فسيحة فرشت ارضيتها بالحصير وقد خلت من الامتعة والرياش الا من خزانة صغيرة أعدت لحفظ الكتب المقدسة

ومن اسعده الحظ بزيارة مساكن اليهود بصحبة واحد منهم تتكشف له حقيقة حياة الاسرائيليين فى اليمن تلك الحياة المكرسة كلها للاسرة وللعمل فهم يعنون بمساكنهم عناية يندر أن يجدها الانسان فى منازل العرب والترجيلات الفخمة المزركشة التى هى فخر « المفارج » اليمنية وزينتها والتى هى بهجة المدخنين تصنع فى هذه الافنية التى تصنع فيها ايضا كل الحلى

والمصوغات الذهبية والفضية الرقيقة من العقود والاساور والخواتم والدلايات والتمائم التى يحلو لنساء العرب التزين بها

وليس فى استطاعة اليهود كما قلنا حمل السلاح ومع كل فهم الذين يجعلون مقابض الخناجر والسيوف ذات منظر فخم عظيم بما ينقشونه ويحفرونه عليها من نقوش وزخارف بديعة

وليس لهم حق السكنى فى قصور فخمة رائعة أو دور مزخرفة انيقة ولو أنهم هم الذين يبنون قصور السادة والاغنياء والامراء ويزينونها أحسن زينة !

ولا يسمح لليهود بركوب الخيل على ان البرادع الجميلة التى توضع فوق ظهور الجياد العربية الاصيلة انما تخرج من تحت ايدى اليهود الماهرة العاملة الناصبة

وصفوة القول ان معظم تجارة وصناعة المدن اليمنية تكاد تكون محصورة فى ايدى اليهود ومع كل ذلك نرى العرب يضمرون لهم كل احتقار وازدراء ولو أنهم يعلمون كل العلم انهم لا يستطيعون الاستغناء عن عملهم الثمين ويهتم الامام يحيى بنافذ بصره وواسع حكمته كل الاهتمام باليهود ويقدرهم حق قدرهم . وهناك فى اليمن قانون قديم معمول به من عهد بعيد يقضى بانتقال املاك من يخرج من اليمن من اليهود الى يد الملك ومع ذلك فقد تم فى السنين الاخيرة ارتحال عدد عظيم من اليهود واذكر أنى شاهدت فى ليلة دافئة من ليالى شهر ديسمبر الماضى بضع مئين من اليهود عند مرسى البواخر فى ميناء عدن مجتمعين ينتظرون دورهم للسفر الى فلسطين وطنهم القومى المزعوم وكانت لمعظمهم تلك اللحية الطويلة المرسلة من اصداغهم . اما نساؤهم فكن لازلن يحتفظن بملابسهن التقليدية التى كن يرتدينها فى المدن التى جئن منها فالصنعانيات كن يلبسن السراويل التيلية السوداء المشدودة الى كعوبهن برباط من حرير احمر وكن يغطين رءوسهن بمناديل سوداء كن يمسكن اطرافها بايديهن لتغطية افواههن . اما يهوديات تعز فكن يتحلين بعقود مختلفة الالوان وباكاليل صغيرة لطيفة وقد لبث هذا الجمهور فى

انتظاره صامتا لايبدى حركة ولم تكن تبدو الحياة الا فى عيون افراده التى كانت تشرق بالآمال

واليهود هم الذين اشار النبي محمد بانهم أعداؤه الألداء ولذلك صب لعنته عليهم ولعن كل من اتصل بهم والواقع انه لخير للمرء ان لايتعامل معهم وأن لايجدهم بين قدميه. ولكن لوان اليهود جميعا تركوا بلاد اليمن فمن ذا الذى يستطيع ان يحل محلهم أو يملأ الفراغ الذى يشغلونه ؟

هل هم العرب ؟

ويعرف الامام يحيي رعاياه حق المعرفة ولذلك ليست عنده شبهة فى هذا الأمر ويؤثر عدم الاستيلاء على املاك اليهود ومنهم من جمع ثروات طائلة رغم كل الصعوبات التى يلاقونها ويفضل الاحتفاظ باولئك القوم الدمثى الخلق العاملين المجدين الذين يساعدون مساعدة جدية على تقدم بلاد اليمن ونجاحها ورفاهيتها وزيادة ثروتها .

ومع ان الامام قد ترك اليهود فى حالتهم الاجتماعية المنحطة ولم يعمل على رفع القيود الثقيلة المفروضة عليهم الا انه قد اتخذ فى السنوات الأخيرة عدة تدابير من شأنها منع العرب من مصارحة اليهود بالعداوة والبغضاء ولسوف يقول بعض المتعصبين ان الامام يحمى اليهود ويشملهم بعطفه ورعايته ! !

والواقع انه لحمايتهم والمحافظة عليهم قد سجنهم واحكم اغلاق الباب دونهم !!

١٠

عاهل بلاد العرب

لعل أعظم حادث وقع لليمن فى هذه السنوات الاخيرة كان الخلاف بينه وبين الحجاز . وقد استيقظ العالم الذى لم يكن على علم بحقيقة الموقف فى بلاد العرب الجنوبية بعد انتهاء الاستعمار التركى واستمع لاشاعات الحرب بدهشة عظيمة . فقد ظهر اليمن بغتة امام الناس ولم يكونوا يسمعون به او يعلمون من أمره شيئا وسرعان ما تناقل الناس الحديث عنه لانه كان يبدو أمامهم كشىء عفى عليه النسيان طفا على سطح الماء الذى كان يغمره ويحجبه عن الانظار من عهد بعيد .

اليمن ؟ ... صنعاء ؟ .... لم تكن معظم الجماهير تعرف لهذه الالفاظ معنى وحتى الكتاب السياسيون انفسهم اضطر الكثيرون منهم الى الانقضاض على المعاجم والخرائط الجغرافية يبحثون فيها وينقبون والى الكتب المدرسية يستقرئونها فلم يظفروا منها عن اليمن الا باشياء لا تسمن ولا تغنى من جوع !

وعلى اثر ما كتبه الصحفيون الاوروبيون فى اثناء الخلاف وبعده قامت صحافة القاهرة ودمشق تندد بجهل الاوروبيين ببلاد العرب بوجه عام وباليمن خاصة لان كتابهم اخذوا يتخبطون فى كتاباتهم وخلطوا كثيرا فى الاسماء والتواريخ كما نسبوا الى مختلف البلاد العربية المتاخم بعضها لبعض سكانا ومذاهب دينية ومصالح تخالف تمام المخالفة سكانها وعقائدها ومصالحها .

وفضلا عن ان السفن التجارية الاوروبية الضخمة الكثيرة العدد تتقابل كل يوم فى مياه البحر الاحمر فانها تمر كل يوم على مرمى السهم من السواحل اليمنية دون أن تعرج عليها . ومن عادة اليمن ان لا يتحدث عن نفسه وان

لا يدع الناس يتحدثون عنه كثيرا لانه يعيش معتكفا فى داخل حدوده على ما يشتهى غير مكترث بما يجرى فى انحاء العالم الاخرى من الاحداث جليلها وحقيرها وبدون ان يخفى رغبته فى ان يقلل الاجانب من الاهتمام بما يحدث فى داخل حدوده ومع هذا فهل لم يقل الناس دائما ان اسعد الشعوب هى التى لا تاريخ لها ؟

واذا كان لا يزال يوجد شىء من الحقيقة فى تلك الميزة القديمة التى يحتفظ بها ذلك الجزء من بلاد العرب فانه كان مدينا به لتلك العزلة التى التزمها وذلك الصمت الذى عرف كيف يحيط نفسه به .

اما الجزء الآخر من بلاد العرب وهو الذى يقال له « الصحراء » فقد عرف الناس عنه بعض الشىء فى السنوات الاخيرة بفضل ذلك الكتاب الشائق الذى وضعه عنه « لورنس » الشهير وبفضل الرسائل الممتعة التى يكتبها عنه المستشرق « فيلبى » من آن لآخر، كما عرفوا عنه بعض الشىء مما ذاع فى اثناء الحرب العالمية الاولى وبعدها عن الحوادث التى اثارها صراع المتحاربين حول قناة السويس والوقائع التى وضعت حدا لحكم الهاشميين وسيطرتهم على الاماكن المقدسة الاسلامية وعن انشاء الامبراطورية الوهابية العظيمة :

ولقد كانت صورة ابن السعود الوقورة وشخصيته المبجلة فى الصف الاول دائما لان تاريخ حياة هذا الامير البدوى النبيل والفارس المغوار القدير والسياسى الحاذق الفطن اللبيب الذى هو اشبه شىء بالقصص الخرافية أو الروايات الخيالية كان موضوعا لعدة مؤلفات لبعض الكتاب الذين خلع عليه نفر منهم لقب « نابليون الصحراء »

ويعلم الناس جميعا أن هذا الرجل فى مدى عشرات قلائل من السنين قد بنى مجده وأنشأ امبراطورية الشاسعة المترامية الأطراف وكانت أسرة آل سعود قد طردت من امارتها فى (الرياض) على يد آل الرشيد الذين كانوا يحكمون فى (حائل) والذين اضطروا السعوديين الى الالتجاء الى بلاد الكويت . ولقد كان ابن السعود لم يزل فى الخامسة والعشرين من عمره وكان لا يزال

فقيرا لا يحكم الا على عصاه عندما فكر فى استعادة ملك آبائه وأجداده فقام ومعه ثلاثون رجلا من رجاله الاشداء المخلصين كانوا على تمام الاستعداد للمغامرة معه بحياتهم ولاحتمال كل ماقد يصيبهم فى سبيل نصرته . وقد نجح ابن السعود فى التسلل ليلا وبدون أن يراه أحد الى (الرياض) والتغلغل فى قلب مدينته القديمة ومسقط رأسه حتى وصل الى قلعتها بشجاعة وجرأة عظيمتين وفيها استطاع التغلب على الامير عجلان وقتله بعد عراك عنيف قام بينه وبينه جسما لجسم .

ولم يلبث على اثر هذا النجاح الاول ان قام بزحف سريع خاطف خلال الصحراء الرملية القاحلة واحتل مقاطعات نجد الواحدة تلو الاخرى بعدمعارك دامية حامية الوطيس وكان احتلاله اياها بهذه السرعة قد جعل له شهرة عظيمة ذاعت عنه فى الآفاق وكان من شأنها ان هابه الجميع واعتقدوا بانه الرجل الذى لا يقهر !

وكان يتبعه انى سار رجاله البدو الذين كانوا يخضعون خضوعا أعمى للقوانين والتعاليم الوهابية الصارمة وكانوا يتحملون كل المصاعب ويواجهون كل الاخطار فى سبيل نصرة قضيته فلم يمض طويل وقت حتى فتح مدينة (حائل) بعد أن أباد آل الرشيد وشتت شمل رجالهم كما غزا أرض الاحساء الواقعة على الخليج الفارسى واخيرا وجه نظره شطر الهاشميين الذين كانوا اصدقاء لبريطانيا ودخل عاصمتهم مكة فى اليوم الثامن عشر من شهر أكتوبر سنة اربعة وعشرين وتسعمائة والف .

استمرت فتوحاته فى الامتداد حتى بعد احتلال الاماكن المقدسة وبعد ان استولى على جدة تقدم نحو العسير وكان مقدرا له انه فى زحفه نحو الجنوب لا بد وأن يلتقى ويصطدم مع امام الزيديين الذى كان قد احتل اقليم الحديدة وكان يحاول أن يمد فى حدود مملكته نحو الشمال . وفى الحق انها كانت ستكون مقابلة تاريخية مشهودة بين ملكى بلاد العرب ابن السعود ويحيي بن محمد الذين لشخصيتهما أهمية عظمى لانهما الرجلان العربيان الوحيدان اللذان يستطيعان المفاخرة بان مملكتيهما مستقلتان استقلالا تاما عن كل سيطرة

من جانب الدول الاجنبية واللذان هما فى الوقت الحاضر رئيسان دينيان لطائفتين كبيرتين من طوائف المسلمين يحكمان حكما او توقراطيا تلك البلاد التى لا تزال تبهر عيوننا وتأخذ بمجامع قلوبنا وكلاهما لم يخرج للان ولم يتخط حدود بلاده

وكان حظ بلاد العسير يتأرجح فى كفة القدر امام هذين الرجلين العظيمين والعاهلين الطموحين وكان فى استطاعة هذه البلاد أن تقوم بوظيفة دولة تجعل من نفسها حاجزا وسدا بين دولتى اليمن والحجاز وأن تعيش عيشة سعيدة ناعمة البال على حساب هذا الوضع لو لم يكن على رأس حكومتها اذ ذاك رجال ضعاف النفوس لم يعرفوا كيف ينتفعون بهذا الوضع

ولكن الى أية حكومة كان يجب أن تنضم بلاد العسير انضماما شرعيا اذا ما فقدت استقلالها ؟ أللحكومة الوهابية أو الى حكومة الزيدين ؟

كان الامام يحيى يقول أن العسير كانت فى الماضى جزءا من العربية السعيدة ولذلك يجب ان تعود الى احضان امها اليمن !

اما السعوديون فقد نشروا من جانبهم (كتابا أخضر) زعموا فيه انه لا توجد حدود طبيعية تفصل بين أجزاء بلاد العرب فضلا عن وحدة اللغة والدين وقالوا ان شبه الجزيرة العربية انما هو كل لا يتجزأ . . .

وان الذى أعطى تلك الحرب العجيبة التى قامت بين البلدين العربيين طعما غريبا وساعد على تخبط آراء المراقبين الغربيين انما كان الشكل الذى اتخذته هذه الحرب والخاتمة الحاسمة التى انتهت بها . اما السبب الرسمى الذى اتخذ ذريعة للبدء فى الاعمال العدوانية فهو قبول الامام يحيى التجاء الامراء الادارسة الذين كانوا بمعاونة بعض أفراد من اليمنيين يثيرون الاضطرابات ويعملون على اثارة الفتن ضد الحكومة التى كان قد انشأها ابن السعود فى بلادهم وكان يشملها بحمايته .

لم يلتحم الجيشان فى معركة حقيقية لان اليمنيين الذين كانوا يقاسون فى تهامة أشد انواع الحر كانوا يتحاشون الالتحام فى المعركة فى السهل الساحلى

المحرق الذى يسكنه قوم يشك كثيرا فى اخلاصهم كل الاخلاص لحكومة صنعاء . وآثروا التقهقر الى الجبال تاركين الجيوش السعودية المدربة أحسن تدريب على حروب الصحراء — تزحف بطول الساحل وتتوغل فى أراضى تهامةدون ان يقاوموهم حتى دخلوا مدينة الحديدة

ولقد كان من الممكن أن تنشب المعركة فى تلك اللحظة عندما اخذ السعوديون الذين كانوا تحت قيادة قائدين محنكين هما أكبرا ابناء الملك ابن السعود — يشقون لانفسهم الطريق بين المرتفعات الى صنعاء ومع ذلك فانه كان يبدو للعالم عندما كان يسمع انباء الفتن والثورات فى الاقاليم اليمنيةوما اذيع من اخبار عن موت الامام يحيى — انه ليس هناك ما يمنع ابن السعود من ضم بلاد اليمن كلها الى بلاده

حقيقة اسرعت الى ميناء الحديدة السفن الحربية التى أرسلتها بمنتهى السرعة الدول العظمى التى لها مصالح فى البحر الاحمر ولكن لم يبد ان هذه الدول كانت متفقة فيما بينها على الاجراآت التى يجب أن تتخذها . ومن جهة اخرى كان الناس يعرفون مقدار الصعوبات التى لا بد أن يلاقيها الجيش الوهابى الزاحف وهو يخاطر بالقتال وسط الجبال الوعرة التى لاتستطيع الوسائل الميكانيكية أن تتحرك فيها أو تجد لها فيها طريقا يسهل لها التقدم الى الامام .

وعلى حين بغتة « هب » الصلح وهو فى الحقيقة صلح كان أغرب من الحرب لانه لم يكن ليغير الموقف الذى خلقه احتلال السعوديين للعسير تغييرا يذكر فلم تفرض على الامام يحيى ابة تعويضات مالية ولم يرغم على التنازل عن شىء من الاراضى اليمنية ولكن الذى فرض عليه انما كان تسليم الادارسة واطلاق سراح الرهائن الذين أخذوا من جبال العسير .. ولاشىء غير ذلك ....

وهذه المسألة هى وحدها ودون باقى الشروط هى التى اشارت اليها الرسائل التى تبودلت بين المندوبين المفاوضين . ولكن معاهدة الصلح التى

اطلق عليها اسم معاهدة الطائف لم تكن الا انشودة من اناشيد « الوحدة العربيـة » .

وقد أصبح المنظر شعريا عندما وصل الادارسة مع اتباعهـم الذين كانوا لايقلون عن ثلثمائة شخص الى الحديدة حيث استقبلهم الامـير الشاب فيصل آل سعود أحسن استقبال واسرع الامير حسن الادريسى بارسال برقية الى الملك ابن السعود يشكر له لطفه وكرمه . وقد رد عليه الملك السعودى قائلا : « حمدا لله على وصولكم بصحة جيدة . واعلم باركك الله أن كل ما تم انما تم بفضل الله وبأمره فكن مطمئن البال ولن ترى ان شاء الله الاما يسرك »

اما باقى المعاهدة فيلقى ضوءا كبيرا على نفسيتى هذين الرئيسين العربيين وعلى الاخص نفسية الملك ابن السعود الذى يرجع اليه الفضل فى وضع نص الوثيقة وروحها لانهما « رغبـة منهما فى وضع حد للحرب التى قامت لسوء الحظ بينهما وللتوفيق بين الأمة الاسلاميـة ولصون كرامتها ورفعة شأنها والمحافظة على استقلالها ـ قررا أن يعقدا « معاهدة الصداقة الاسلامية والأخوة العربية » وأن يوطدا بين الحجاز واليمن علاقات حسن الجوار لكى تكون من البلدين « وحدة أمام الحوادث المفاجئة ولاقامة بناء متين البنيان يصون مصالح الجزيرة العربية واستقلالها »

وبتوقيع هذه المعاهدة انتهت حالة الحرب وسرعان ما توطد بين البلدين وبين الشعبين صلح دائم وصداقة أكيدة واخوة اسلامية عربية لا يمكن أن تتزعزع لافى مجموعها ولا فى اى جزء من اجزائها » ولقد اشهد الملكان الله على حسن نياتهما ورغبتهما فى التوفيق وجمع الكلمة والاتحاد والتعاون سرا وعلانية واعترف كل فريق من الفريقين المتعاقدين للآخر بكامل الاستقلال والسيادة المطلقة على بلاده متنازلا عن كل حق سبق له أن ادعاه أو طالب به فى أراض أو فيما عداها .

ولقد اتخذت كل الوسائل السلمية التى من شأنها انهاء هذا الخلاف كما رسمت الحدود النهائية بين البلادين بكل دقة ووضح مركز القبائل المقيمة على الحدود

من الناحية القانونية وتعهد كل فريق من الفريقين المتعاقدين بان لا يقيم حصونا على مسافة تقل عن خمسة كيلو مترات من حدود الآخر وأن يسحب جنوده من الاراضى التى اعترف بأنها من بلاد الطرف الآخر .

على أنه توجد فى المعاهدة بعض مواد قد يبدو لاول وهلة انها نصوص شكلية لا قيمة لها ولكنها فى الحقيقة ذات أهمية عظمى ومغزى كبير ومنها هذه المادة : « يقرر الطرفان المتعاقدان المرتبطان بروابط الاخوة الاسلامية والجنسية العربية أن أمتيهما انما هى أمة واحدة وانهما لا يضمران الشر لأحد وأنهما يعملان على رفعة شئون الأمة تحت ظل السلام والهدوء وانهما سيبذلان جهديهما فى كل وقت لخير بلاديهما وأمتيهما دون ان يحاولا الاعتداء على أحد . وفى حالة اعتداء أجنبى على اراضى أحد الطرفين يلتزم الطرف الثانى بتنفيذ هذه التعهدات وبالمحافظة على حياده سرا وعلانية وبتقديم المساعدة الأدبية الممكنة وبالبدء فى مفاوضة الطرف الآخر لمعرفة أحسن الطرق لضمان سلامة أراضيه وبتجنب الاضرار به وبالامتناع عن القيام باى عمل يمكن أن يفسر بأن من شأنه معاونة المعتدى الاجنبى »

« ويقرر كل فريق من الفريقين المتعاقدين ايضا باستعداده للسماح لمندوبيه وممثلية فى الخارج بتمثيل بلاد الطرف الآخر فى أى أمر وفى أى وقت عندما يرغب الطرف الآخر فى ذلك ويكون مفهوما بأنه متى وجد اشخاص من الفريقين يقومون بهذه الوظيفة فى مكان واحد يكون من الواجب عليهم أن يتشاوروا لكى يوحدوا مسلكهم لمصلحة البلدين والشعبين اللذين يعتبران كانهما أمة واحدة -ويكون مفهوما كذلك أن هذه المادة لا تقيد فى شىء حرية أحد الفريقين فى مزاولة أى حق من حقوقه ولا يمكن أن تفسر بانها تحد حرية الطرف الآخر أو تلغيها »

وسرعان ما ادهشت هذه المعاهدة العالم بامره للكرم والتسامح اللذين أظهرهما ابن السعود واللذين زادا فى رفعة مقام « نابليون الصحراء » وعلو مركزه فى نظر العالم العربى اذ لن هذه المعاهدة بدأت تعتبر النداء الاول أو النداء الرسمى الجديد « للوحدة العربية »

ولا حاجة لتفسير اعتدال ملك الحجاز بصعوبة بقاء تهامـة فى يديه بدون احتلال الهضبة اليمنية كلها أو بالخوف من تدخل الانجليز ومعارضتهم فى انشاء دولة عربية كبيرة متحدة فى بلاد العرب . وربما كان لمثل هـذه الاعتبارات تأثيرها فى مجرى الخلاف . وعلى كل فان ابن السعود لم يدع الفرصة تفلت من بين يديه تلك الفرصة التى سنحت له وأخذ يبث افكاره وآراءه فى المسألة العربية

اما فـكرة تحقيق (الوحدة العربية) التى لم توجد قط فى غير الوقت الذى استطاع فيه (الرسول) تحقيقها فقد كانت فكرة الشريف حسين الهاشمى أمير مكة وملك الحجاز الأسبق الذى عمل على تحقيقها فى عام ١٩١٦ بعد أن أصبح ملـكا على الأراضى المقدسة كما نادى بها أيضا واراد العمل لاخراجها الى حيز الوجود ابنه الملك فيصل الذى ارتقى بمساعدة الانجليز عرش العراق .

ويمكن القول بان هذه الفـكرة كانت حتى الأمس فـكرة الملوك الهاشميين قبل غيرهم من العرب . أما الآن فبموت الحسين وفيصل واختفائهما من مسرح السياسة العربية يتلفت المطالبون بالوحدة العربية نحو ابن السعود وينظرون اليه بصفته الرجل الوحيد الذى يستطيع تحقيق حلمهم اللذيذ ولا أدرى ما الذى يمنع العرب جميعا من اعتبار ملك الحجاز الذى هو أقوى مركزا واحسن استعدادا من الملوك الهاشميين ـ الشخص الوحيد الذى يستطيع تحرير الشعوب العربية الأخرى من كل نوع من انواع الوصاية الأجنبية ويضمن لأمتهم وحدتهـا وكامل استقلالها ؟

ويجب قبل كل شىء ان لا يغيب عن بالنـا مركزه بوصفه رئيس الدولة الوهابية وقد قام ابن السعود بفتوحاته باسم الدين فـكان رجاله يذهبون الى النصر والى الجهاد والى الاستشهاد فى سبيل قضيتهم بنفوس راضية مطمئنة كما كان يذهب المسلمون ايام نشأة الاسلام للجهاد وللموت فى سبيل الله . ولـكن هل تستطيع الدول العربية التى اصابت طرفا من المدنية بعد احتكاكها بالمدنية الغربية أن تقبل الخضوع للقواعد الصارمة التى يفرضها المتطرفون الوهابيون؟

اراد ابن السعود بمعاهدة الطائف ان يطمئن هذه الدول من هذه الناحية

وأن يقنعها بان لا تخشى شيئا من ذلك . وان عبارة (البلدان أمة واحدة) التى وردت وتكرر ذكرها أكثر من مرة فى هذه (المعاهدة) انما هى برنامج لا يبرر أى تحفظ . وفضلا عن ذلك فانها قد قدمت على سبيل المثال فى اتفاق عقد بين بلدين مسلمين عربيين يختلف أحدهما عن الآخر فى مذهبه الدينى كل اختلاف .

ولقد كان للعقيدة الدينية حتى اليوم المكان الأول فى الاعتبارات السياسية عند المسلمين العرب أما الآن فيجب ان تخضع العقيدة لفكرة (الأمة) وقد يكون من الصعب القول بأية نفس قبل بعض اليمنيين أن يوقعوا فى معاهدة الطائف على (النداء) الجديد للوحدة العربية . ومما لاشك فيه أن هناك نفرا من المحافظين يعتقد فى قرارة نفسه ان هذه المعاهدة قيمتها فى أنها عقدت لتجنيب البلادين ويلات الحرب ولعدم سفك دماء المسلمين لأن هذا النفر لا يعرف ما هى (الوحدة العربية) ولا ما هى (الأمة) لأن اليمنيين زيديون وسيبقون زيديين الى ما شاء الله اذ بينما كان رؤساؤهم المتصالحون يرتبطون بروابط الصداقة والمحبة ذهب ثلاثة من اليمنيين المتعصبين لاداء فريضة الحج فى مكة وحاولوا برعونة وغباوة وطيش — الاعتداء على حياة الملك ابن السعود أمام الكعبة . والايمان هو عندهم وسيبقى دائما الى اليمين وسوف يستمر مسيطرا على أفكارهم وعلى أعمالهم كلها !

ولكن مما لاشك فيه ان هؤلاء اصبحوا أقلية فى اليمن ويوجد الى جانب هؤلاء كثيرون يرون فى معاهدة الطائف اساسا صالحا لحياة هادئة مستقرة ووسيلة ناجحة لتقدم الدول العربية وسعادتها وذلك لأن الفكرة الوطنية التى تضمنتها والتى نودى بها اذا لم يكن من شأنها تحرير البلاد العربية الخاضعة للحماية أو الوصاية أو الرقابة أو الانتداب الاجنبى فانها على الاقل سوف تشجع على مقاومة ماقد تقوم به الدول الاجنبية من اعتداءات أو محاولات لخنق الحرية فى أى بلد من البلاد العربية .

ويمكن القول بان ابن السعود قد اصبح فى الواقع من الآن فصاعدا هو القائم على رأس حركة (الوحدة العربية) وهو الذى منحها (دستورها) الجديد

فى (معاهدة الطائف) تلك المعاهدة التى اراد أن تكون (نجم الصباح) الذى يهتدى بنوره الوطنيون والتى افتخر بعقدهـا نزولا على دعوة مفتى القدس وكبار الشخصيات الاسلامية .

ولقـد اصبح مقـامه ونفوذه كرئيس دينى يمتد الى خارج نطاق حـدود مملـكته الواسعة . وان زيارة ابنه الاكبر بعـد عودته من رحلته فى اوربا لرؤساء العرب فى فلسطين وشرق الاردن لا تخـلو من مغزى عظيم . كما أن زواج الملك السعودى من ابنة الزعيم المشهور نورى الشعلان رئيس قبـائل (الرولة) فى الشام له شأن كبير لانه اعتاد أن يقوى سياسته الخاصة بمصاهرة القبائل الـكبيرة جريا على سنة نبي المسلمين !

١١

بلاط يحي بن محمد

ليست لملك اليمن « حكومة » ولكن له « بلاطا » . وهذا مايلائم حالته ومركزه تمام الملاءمة فهو ملك او توقراطى عاقل حازم عظيم الخبرة بالرجال الذين يعتمد عليهم ويضع ثقته فيهم والذين يختارهم لمعاونته وهو عليم بما يحاك حوله من الدسائس ويعرف طرق الوقاية منها كما يعرف كيف يقاومها ويفيد منها الى أقصى حد ممكن .

وكثيرا مايعين الامام « وزراء » ولكن هذه الألقاب التى يخلعها عليهم ليست فى الغالب سوى ألقاب شرف ولا شىء غير ذلك فأحد أولاده هو وزير المالية ويعلم الناس جميعا أن الشئون المالية فى اليمن انما يهتم بها الامام بنفسه ويسهر عليها بيقظة وحذر كما أن ولدا آخر من أولاده هو وزير المواصلات ولسنا فى حاجة الى القول بان حركة التنقل فى اليمن محدودة الى اقصى حد وتقوم فى الغالب على ظهور البغال وفوق متون الابل فى القوافل القديمة البطيئة . اما البريد فانه رغم نشاطه لايزال فى عهد البداية كما أن التلغراف لا يدع مجالا للاهتمام بشأنه .

على انه فى الظروف الاستثنائية اذا ماجد الجد واقتضى الأمر اتخاذ قرارات هامة — يجمع الملك مجلسا يضم وجهاء البلاد وعلماءها وذوى الرأى فيها ممن عرفوا بالخبرة والحنكة وبعد النظر واصالة الرأى لكى يبحثوا الموقف من كل نواحيه ولكى يشتركوا معه فى تحمل المسئولية ولو أنه قد جرت عادة الامام أن يعمل فى أغلب الاحيان ما يتراءى له . فالحكومة هى الامام والامام هو الحكومة وهو يصدر قراراته فى كل أمر من أمور الدولة جل أوهان أولا بأول دون أن يترك لأحد غيره عناء التعب أو التفكير ومع

ذلك فانه ليس من حق معاونيه أن يتقلدوا الوظائف بدون أن يؤدوا عملا يوازى المرتب الذى يتقاضونه من مال الدولة . وان ملكا مثل يحيى بن محمد لفى اشد الحاجة الى الرجال الأذكياء الموثوق بهم الذين يفهمون اخلاقه حق الفهم ويتوجهون اليه بايحاءاتهم الحكيمة بدون أن يظهروا له انها نصائح أو ارشادات والذين يعرفون كيف يجعلونه يصدر أوامره ويحملونه على تنفيذها وينظرون الى كتفيه دون ان يثقلوا عليهما للدفاع عنه وحمايته والذين يتحلون بفضيلة الاعتدال والانصاف .

وجدارة الامام انما هى فى أنه فهم حقيقة هؤلاء الرجال وعرف كيف يعثر عليهم . وهؤلاء لهم ايضا لقب « الوزراء » ولكن من العبث محاولة العثور على وزاراتهم(١) اعنى دواوينها ودرجاتها البيروقراطية . أما مراكزهم فهى وسائد « الديوان » التى يجلسون عليها فى حضرة مليكهم . وأما سكرتاريوهم فيؤخذون من بين الكتاب الذين يتجمعون فى ابهاء (المقام) وغرف الانتظار فيه .

ولقد استطعت بعد الجلسة الاولى التى جلستها مع الامام التقرب من كبار الشخصيات الذين يحيطون به لان الابتداء بالتعرف بهم يعتبر مخالفة لأبسط قواعد الآداب ونواميس اللياقة لأن واجب الضيف أن يبدأ بتحية « رب البيت » قبل أى شخص آخر . ولقد اتبعت هذه العادة من أزمان بعيدة حتى عند سفراء العرب لدى الممالك الاوربية فان سفير «باشا» طرابلس الغرب الذى أرسل الى مدينة كوبنهاجن فى منتصف القرن الثامن عشر رفض استقبال كبار الشخصيات الذين جاءوا لتحيته ولتهنئته بسلامة الوصول ولم يشأ أن يتحدث الى أحد منهم قبل أن يستقبله وزير الدولة .

والى بضع سنوات كان كل من يأتى لزيارة صنعاء يضطر للبقاء فى مسكنه حتى اللحظة التى يحظى فيها بشرف المقابلة الملكية فاذا كان الملك منحرف

---

(١) الحقيقة ان لوزارات اليمن دواوين خاصة لها موظفوها وكتابها

المزاج أو خرج الى الريف أو مشغولا باى عمل هام من أعمال الدولة أو اذا لم يكن مستعدا لاستقباله فى الحال وجب على الضيف المسكين أن يسجن نفسه سجناً كان يطول فى بعض الأحيان ويستمر مدى أسابيع كاملة .

ولقد بحثت فى بادىء الأمر عن القاضى عبد الله العمرى وقابلته عند عودته من المسجد بعد صلاة العصر وكانت تحيط به جمهرة كبيرة من السادة ويسير فى اثره خلق كثير من عامة الشعب ومن خلف هؤلاء « ركابى » يمسك بلجام جواده الأبيض ولا أظن أن القاضى عبد الله يحب هـذه الاستعراضات أو يميل الى هذه المظاهر ولـكن جرت العادة بذلك اذ انه لا يليق بشخصية او عوظف كبير المقـام أن يخرج فى طرقات صنعاء بدون أن يـكون فى معيته « حرس شرف » كهذا وكلما علامقام صاحب الوظيفة كلما زاد عدد حاشيته التى تتبعه والتى تسير فى اثره أنى سار .

والقاضى عبد الله هو الذراع اليمنى لجـلالة الامام ويسميه البعض (وزير الداخلية) كما يخلع عليه البعض لقب « رئيس الوزراء » ولقد استقبلنى فى بهو صغير كان النور يتسلل اليه من خلال الزجاج الرخامى الذى كان يلقى ضوءا على الـكتب المصفوفة فى العيون المفتوحة فى الجدران العارية . ودار هذا الوزير من اجمل ما رأيته من الدور فى العاصمة اليمنية ويقوم فوق سد « غيل الاسود » الغليظ الى جانب غدير تكاد تجف مياهه طول السنة ومع ذلك فانه عندما يمتلىء بالأمطار التى تهطل فى فصل الربيـع يشق المدينة الى شقين ويعرقل حركة المواصلات وهذا مادعا الاتراك الى ان يقيموا فوقـه قنطرة صغيرة وعندما رأى اليمنيون هذه القنطرة قد أقيمت وانتفعوا بهـا وجدوا ان فكرة اقامتها لا بأس بها ولا ضرر منها ولذلك تركوها حيث هى

لم تـكن زيارتى للوزير عبد الله سوى عمل من أعمال البروتوكول لأنى لما كنت أعرف مبلغ اعتدال هذا الوزير واخلاصه لمليكه لم أشأ أن اثقل عليه أو أقدم له شيئا من الأسئلة المحرجة التى اكسبت الصحفيين شهرة « الثقلاء » وقد كان معاليه يتحدث الى وهو يبتسم ابتسامة فاترة لم تـكن لتشجعنى على

الاقـدام أو الجرأة أو على الاكثار من الأسئلة وكان يتكلم بصوت هادىء لا تتغير نبراته لم يرفعه لحظة واحدة طول مدة حديثنا وكان الحـديث بيننا يجرى بتبسط وانشراح فى موضوعات شتى لا أهمية لها على الاطلاق. والقاضى عبد الله رجل فطن لبيب معتدل لا أثر فيـه للتعصب يستطيـع تفهم الآراء الغربية ويتقبلها قبولا حسنا واذا كان فى اثناء حديثه يمسك بكلتا يديه قبضة سيفة المتدلى فوق بطنه من حزامه الجلدى الموشى بالذهب فانه لم يكن يفعل ذلك الا لانه لم يتعود الاستعانة فى كلامـه بالحركات والاشارات كما يفعـل البعض عند ما يتـكلمون . ولما سألته عن الاخبار الخاصة بالموقف اليمنى اجابنى بانى استطيع ان اجد كلما اريد معرفته فى هذا الشأن عند وزير الخارجية .

أما ذلك الوزير فقد سبق لى ان رأيته فى « الديوان » الملـكى ولمـا كان الملك يتحدث الى عن صوم رمضان بدرت منه عبارة ابتسم لهـا المجلس كله اذ قال لى وهو يغمض طرف عينه ان الصيام فيه فائدة للصحة ولو أن هنـاك احد الاتراك يرى ان فيه شيئا من القسوة والصرامة. ولما كنت اتتبع نظرات الجالسين امكننى ان افهم بسهولة ان «احد الأتراك» هذا الذى قصده المليك انما هو راغب بك . وهو رجل لطيف وردى اللون تحيط بوجهه لحية بيضاء مستديرة وكان يجلس الى جانبى وهو يخفى كلتـا يديه فى اكمام ثوبه الفضفاضة ونظر الى هو ايضا بطرف عينه وقال : هذا هو ما اعتقده ! !

أما البيت الذى يسكنه وزير الخارجية فقد سكنه الامام على اثر عودته الى صنعاء قبل ان يبنى « بيت الشكر » . وفى هـذا البيت يستطيـع الانسان – ولله الحمد – أن يجلس فوق مقاعد مريحـة وأن يتحدث كما يشاء بغير حاجة الى مترجمين

ووزير خارجية اليمن هو احـد الدبلوماسيين الاتراك السابقين كان قـد أرسل الى اليمن فى مهمة خاصة بعد أن قام بوظيفة قنصل فى عدة مدن من مدن آسيا وأوربا ولما جاء الى اليمن ارتبط باوثق روابط المودة والصداقة مع الامام يحيى الذى استبقاه الى جانبه بعد أن أخلى الاتراك البلاد اليمنية وترحوا عنها ولقد بقى راغب بك من ذلك الوقت الى الآن عند صديقه ولا يوجد من هو

أصلح منه فى اليمن فى الوقت الحاضر للقيام على ادارة الشئون الخارجية فى هذه الحكومة الجديدة .

ولقد توطدت الصداقة بين راغب بك والامام مع مرور الزمن وخاصة بعدأن زوج ابنتيه لولدين من أولاد الامام . وراغب بك رجل مثقف واسع الاطلاع لطيف المعشر دمث الخلق لا يمتاز الغربيون عنه فى شىء سواء فى عاداته أو فى طباعه . وتحت الثوب اليمنى المفتوح من الامام الذى يرتديه ينتهى قميصه المخطط بثنية حول عنقه تشبه الياقة ولاينقصه الا « رباط الرقبة » حتى يوجد توفيقا جديا بين اللباس الاسيوى واللباس الاوروبى . هذا ولم تكن السنون الطويلة التى قضاها راغب بك فى اليمن لتخمد فيه الحنين الى أوروبا وقد حدثنى بسرور وصارحنى برغبته الشديدة وعزمه على القيام برحلة اليها فى أقرب فرصة على أن تكون أول مدينة ينزل فيها هى نابولى ثم يعرج على روما لانه يريد ان يستعيد فى نابولى ذكريات سنيه الخضراوات عندما بدأ أولى خطواته فى السلك القنصلى وفى الثانية يريد التعرف الى كبار شخصياتها وزعمائها .

ويظهر راغب بك حبا صادقا لليمن ورغبة شديدة للعمل على اسعاده دون أن يبدو عليه التحفظ أو الاحتياط الذى يبديه فى احاديثهم أهل هذه البلاد انفسهم فيقول : « اننا نعمل على ترقية هذه البلاد المحبوبة وفى هذا جهد شاق ولكنه شائق لذيذا قدم عليه بشغف ولكن للوصول الى هذا الغرض يجب التغلب على الكثير من المصاعب وتخطى الكثير من العقبات وأولى هذه العقبات هى المقاومة العنيفة والعراقيل التى يضعها المتعصبون فى طريق كل تجديد . وليس من شك فى انه يجب علينا ان نعمل هنا الكثير لان كل شىء محتاج الى اصلاح بل يجب خلقه من جديد . وان انشاء الطرق التى قطعتموها والتى تربط صنعاء بالحديدة وعدن اعمال ذات أهمية عظمى قمنابها ولكن السير فيها لايزال شاقا متعبا بعض الشىء ولا يمكن القول بان من يطرقونها كثيرون

ولكنها على كل حال تشير الى بداية عهد جديد له مابعده فاليمن المترهب قد أخذ يشق لنفسه الطريق للمشاركة المدنية وسوف يكون تقدمه ونجاحه اليوم اسهل واسرع من ذى قبل .

ولقد كان الامام ولا يزال عدوا لاتفاقات الاقامة لانه يرى أن اليمن بسبب طريقة نظام حياته الخاصة وتقاليد شعبه وبسبب أحواله وظروفه ليس فى حالة تسمح له باستقبال الممثلين الاجانب أو بارسال ممثلين الى الخارج فى الوقت الحاضر على الاقل اذ لاتزال تنقصنا الدرجات والوظائف لنظامنا القنصلى والدبلوماسى ولا يجهل ملكنا ما يعلقه كل بلد حر من الاهمية العظمى على علاقاته الدولية وانى لعلى يقين من ان هذه المسألة يمكن اعادة بحثها معه فى أقرب فرصة ولقد بدأنا فى ادخال اصلاحات جدية على طريقة الحكم فى بلادنا بقصد التخفيف بقدر المستطاع من الاعباء الملقاة على كاهل الامام والتى زادت على حدود طاقته ولجعل الوسائل الادارية احدث وأكثر مرونة مما هى الآن كما يجب أن نعمل على تقسيم العمل الادارى وتوزيعه بانشاء درجات وادارات ذات رؤساء مسئولين »

ومن المحاولات التى أشار اليها راغب بك فى حديثه والتى عملت لجر بلاد اليمن خارج دائرة القرون الوسطى يمكننا أن نذكر على سبيل المثال ما أدخل من التجديد على النظام القضائى وأهم نقطة فى هذا الموضوع هى الخاصة بالاجانب الغير المسلمين . ويهتم الامام كثيرا بالاجانب المقيمين هنا ويكلف عساكره بالعناية بمساكنهم وبالسهر على راحتهم وطمانينتهم كما أنه يقدم لهم حرسا خاصا يصحبهم فى روحاتهم وغدواتهم . ولقد لقيت انا نفسى لطفا كبيرا ومجاملة عظيمة من جانب السلطات اليمنية وعطفا كبيرا من جانب الشعب

وقد حدث هنا ان حكم القضاء بادانة مسلم من جنسية أجنبية وهو محتال شهير ونصاب عالمى ومغامر كبير له عهد طويل وسوابق عديدة فى النصب والاحتيال وفى الفضائح التى ارتكبها فى كل بلاد الشرق وقد اتصل بأوثق

الصلات بالسيد ادريس السنوسى أمير برقة السابق وزوجه من ابنته ولكن لم يلبث هذا أن اختلف معه وطلق ابنته ودخل معه فى قضايا طويلة

ولما قدم هذا الرجل الى بلاد اليمن ولم يكن أحد يعلم من أمره شيئا استقبل استقبالا حسنا ولكنه استغل هذا الاستقبال الذى قوبل به والحفاوة التى لقيها لكى يخدع بعض الانجليز المقيمين فى مصر وأفهمهم بانه حصل من الامام يحيى على امتيازات عظيمة منها امتياز بالبحث والتنقيب فى اراضى اليمن واستغلال مناجم البترول فيها . وسرعان ماتألفت فى القاهرة شركة برأس مال كبير لاستغلال هذا الامتياز وقد نجح هذا المحتال فى تسلم أموال طائلة منها بحجة أنها تلزمه ـ كما هو معلوم فى مثل هذه الحالات ـ « لتزييت عجلات كثيرة » ولاقامة بعض الحفلات ولتقديم هدايا لجلالة الامام ورجال بلاطه ووزرائه. ثم جاء اليوم الذى اكتشفت فيه ألاعيبه وفضائحه وهكذا استقبل « القصر » (الذى فيه سجن صنعاء) ضيفا « فوق العادة » يختلف كل الاختلاف عن كل من فيه من « النزلاء »

وقد تركت المحكمة للمرة الأولى عند البدء فى محاكمة هذا النصاب اسلوبها العادى وسارت على طريقة اخرى تماثل الطرق المستعملة فى المحاكم الاوروبية . وقد فكر القضاة أيضا فى السماح للاوروبيين المقيمين فى صنعاء بحضور هذه المحاكمة . ولكن راغب بك اخبرنى بأن بعض رؤساء الدين اعترضوا على ذلك لان المسألة خاصة بمحاكمة احد المسلمين .

أما المحاكمة وجميع ما حدث فى الجلسة ونص الحكم فقد نشر كله فى الجريدة التى تصدر فى مدينة صنعاء .

ولكن كيف ذلك :.. هل توجد جرائد فى اليمن ؟

حقا ان الشىء الوحيد الذى لم الاحظه فى العاصمة اليمنية والذى لم يخطر لى ببال هو انه تصدر بها جريدة . ولى العذر فى ذلك لان جريدة (الايمان) ان هى الا جريدة صغيرة (تصدر مؤقتا مرة فى الشهر) رغما من انها سلخت

من عمرها ثمان سنوات .

ولقد استطعت فيما بعد ان أرى بدهشة عظيمة فى (مفرج) عامل صنعاء اللطيف المزدحم بالزوار العدد الأخير من هذه الجريدة اليمنية . وكان هذا البهو الكبير مكتظا بجمهور من السادة الاشراف والاعيان الذين كانوا مضطجعين فوق الوسائد المصفوفة حول جدرانه وكل منهم يحمل معه مبسمة وحزمة صغيرة من اوراق (القات) . وكانت ترى فوق المائدة الواطئة التى كانت تتوسط المكان عدة ترجيلات مكركرة تتجه بخراطيمها الجلدية الطويلة المتعددة الألوان الى كل الجهات . وكانت احداها المزدانة بشرابات حمراء كثيرة ولا يقل طول خرطومها عن الخمسة الامتار تحمل الدخان الى ابعد ركن من اركان المفرج .

اما الشخص الذى كان يتحدث أكثر من غيره فى هذا الجمع والذى كان يقف فى اثناء الكلام وقفات صغيرة ريثما يبصق من آن لآخر فى المبصقة النحاسية فانه كان قاضياً من قضاة اليمن وكان يغمغم فى حديثه بصوت غير مفهوم . ترى هل يحدث هذا من مضغ القات ؟

لقد كان الرجل يحدث الحاضرين عن السياسة الانجليزية تجاه مسألة الاماكن المقدسة ولكنى كنت فى أثناء هذا الحديث فى شغل عنه وعن حديثه بالنظر فى صفحات (جريدة الايمان) الاربع التى كانت حروفها الزخرفية تلهينى وتسبب لى الحيرة التى يحس بها الأميون تجاه اية كتابة . على انى استطعت أن افهم بفضل بعض من كانوا جالسين الى جانبى ان مقالها الافتتاحى كان تلخيصا للموقف الدولى الذى كانت تليه (الحوادث المحلية) بما فيها من مقابلات الامام واخبار تعيينات الموظفين وتنقلاتهم وترقياتهم ثم الاشارة الى قدوم القادمين وسفر المسافرين من كبار الشخصيات وذوى الحيثية ثم « الوفيات » ثم تلى ذلك كله اخبار بعض (الحوادث السوداء)

اما الاشتراك السنوى فى هذه الجريدة فهو ريالان فى اليمن وما يقرب

من نصف جنيه انجليزى فى خارج البلاد . وتطبع جريدة (الايمان) فى المطبعة الوحيدة الموجودة فى اليمن وهى مطبعة صغيرة كان قد أنشأها الاتراك فى ايام حكمهم للبلاد . ومدير الجريدة ومحررها المسئول هو « القاضى عبد الكريم احمد مطهر » الذى هو فى الوقت نفسه وزير العدل فى الحكومة اليمنية .

ومن المحتمل كثيرا ان لا تتاح للحكومة اليمنية الفرصة قريبا لا نشاء ادارة للرقابة على الصحف فى اليمن !!

١٢

احمد سيف الاسلام

اهتم الامامى يحيى اهتماما كبيرا بايجاد ذرية كبيرة فله اليوم اربعة عشر ولدا ذكرا وهذا ليس معناه انه لم يرزق اناثا ولكن لم تجر العادة بأن يتحدث الانسان فى اليمن عن النساء لان هذا أمر غير مرغوب فيه وربما كان فى ذلك شىء من المبالغة ولكنى أظن أننا نحن الغربيين نبالغ كثيرا فى تحدثنا أكثر مما يجب عن النساء .

هذا وان رواة الاخبار والمحدثين الذين يكثر عددهم فى « المفارج » اليمنية والذين لا يخلو عنهم مجلس يخفضون أصواتهم اذا حدثوك عن حريم الملك يحيى . وقد جرت عادة الامام عندما يريد التزوج من زوجة جديدة أن يسرع بطلاق احدى زوجاته الاخريات لكى لا يخالف نصوص الشريعة الاسلامية التى لا تبيح الزواج من اكثر من اربع نساء . أما مطلقة « المتوكل على الله » فيجب أن تبقى فى خدرها بقية أيام حياتها بدون ان تتزوج من غيره على أن الامام لم يستعمل حقه فى الطلاق على اطلاقه كما يفعل ابن السعود الذى تزوج من نساء كثيرات رغبة منه فى مصاهرة اكبر عدد من القبائل العربية الكبيرة الشأن وذلك لغرض سياسى رمى اليه وهو تقوية مركزه وشد ازره بهذه المصاهرات .

وفى داخل نطاق « المقام » على مقربة من المقصف الذى يجلس فيه الامام لمشاهدة العرض العسكرى يقوم « برج الامراء » وهو بناء عجيب الشكل كله شرفات ومصاطب ظريفة وقد أعد لاقامة ابناء الامام الذين ليس لهم مسكن ثابت فى العاصمة . وقد اقام فيه الامير احمد عند عودته الاخيرة الى صنعاء .

أما عودة ابن الامام البكر فقد كانت حادثا اهتم به الرأى العام اليمنى كل الاهتمام وكان حديث الخاصة والعامة على السواء لان سيف الاسلام احمد يعيش من عدة سنوات بعيدا عن العاصمة فى الشمال فى مدن حربيه قاسيه احتفظت فيها القبائل الزيدية بعاداتها القديمة كامله غير منقوصة فاقام اولا فى «حجة» التى تتكون من عدد من المبانى الحصينة وتشرف من ارتفاع الف وخمسمائة متر على منحدرات الهضبة فوق مرتفع مخروط الشكل . ويمكن القول بان هذه المدينة الحصينة ذات الاهمية السياسية والحربية ماهى الا حصن كبير وتبدو الحياة فيها كأنها الحياة بداخل احدى الثكنات وعندما يحضر احد الاجانب لزيارتها ويقترب من بابها ينفخ العساكر فى ابواقهم ولا تفتح مصاريع أبوابها الا عندما تعان القلعة بدق الطبول صدور التصريح بالدخول

انتقل الامير احمد من هذه المدينة الى (صعدة) وهى ايضا مركز عظيم ذو أهمية حربية وتجارية عظمى نظراً لوقوعها على حدود نجد وقد كان الامير مغتبطا باقامته بين رجال حاشد وباجل الاقوياء الشكيمة الشداد المراس الذين تتألف منهم قبيلة من اعظم القبائل الزيدية وأكثرها عددا تستطيع أن تقدم لليمن فى أوقات الحرب خمسين الفا من الجنود الاقوياء والمحاربين الشجعان .

والامير احمد رجل قوى الشكيمة شديد البأس ومحارب من الدرجة الأولى يحب النضال ويميل الى القتال . وعندما أريد اخضاع قبائل الزرانيق الثائرة فى عام ١٩٢٨ اشتد غضبه عندما سمع ان الامام قد عين غيره لقيادة الحملة فى أول الأمر وما زال يلح على أبيه حتى ولاه القيادة . وكان المشروع صعبا والمهمة ثقيلة لان قبيلة الزرانيق شديدة المراس قاوم رجالها الاتراك زمنا طويلا وكانوا لتعصبهم لمذهبهم الشافعى يرفضون مد أيديهم لمصافحة الزيديين سكان الهضاب والمرتفعات . كما أن وجودهم فى (بيت الفقيه) كان يعرقل المواصلات بين الحديدة ومخا فضلا عن أن اقامتهم على الساحل كانت تشجعهم على أن يكونوا فى أغلب الاحيان من قطاع الطرق والقرصان .

قاد الامير أحمد رجاله الجبليين فى ذلك السهل المحرق ضد قبائل الزرانيق المتوحشة ورجالها الانصاف العراة الذين تعودوا احتمال العواصف الرملية والقتال فى الاراضي الجرداء القاحلة واستطاع بعد قتال عنيف معهم أن يقهرهم ويبدد شملهم وأن يقود رجاله الى النصر وعاد الى صنعاء ظافرا منصورا واستقبل عند عودته استقبالا منقطع النظير واحتفل به احتفالا كبيرا لم تشهد عاصمة اليمن مثله على أنه لم يبق فيها طويلا . وقد قيل اذ ذاك بأنه قام بينه وبين والده شيء من سوء التفاهم كان من الممكن ان يتفاقم ويزداد فى اثناء الخلاف مع الحجاز حول طريقة الدفاع عن البلاد التى ارتأى الامام السير عليها وبسبب الامتيازات الكثيرة التى منحت للملك ابن السعود .

واذا كان حقاً ما قيل عن هذا الخلاف وأغلب الظن انه انتهى الآن ولم يبق له اثر لان الامام قد حدثنى عن ابنه الاكبر بكلمات تنم عن عظيم حبه له وعن اعجابه بشجاعته وبشدة اهتمامه بامره لانه هو المنتظر أن يخلفه على عرش اليمن وعلى أمامة الزيديين .

وفى الحق ان الزيود يجهلون نظام « ولايه العرش » ولا يعترفون به ولا عهد لهم به من قبل لانهم يختارون ملكهم وينتخبونه . ويحمل الأمير احمد لقب (سيف الاسلام) كبقية اخوته العديدين كالامير حسن وكالأمير بن علي وعبدالله اللذين ربما كانا اكثرهم حركة ونشاطا وأوسعهم شهرة بين سكان صنعاء وكالطفلين محسن واسماعيل اللذين لا يزالان يلعبان فوق ركبتى ابيهما الوقور الحنون .

ولا يبدو أن الامام يفضل بعض اولاده على بعض وانما كان يقال فيما مضى انه كان كثير الاهتمام بالامير محمد ثانى انجاله وأنه كان يؤثره على اخوته وكان هذا الامير دمث الخلق متوقد الذكاء نشيطا مؤدبا واسع الاطلاع وكان قد ارسله والده فى عام ١٩٢٨ الى مدينة روما لرد الزيارة الرسمية التى قامت بها البعثة الايطالية لصنعاء . وعندما غرق فى مياه الحديدة وهو يحاول انقاذ صديق له سقط فى الماء وكان على وشك الغرق رثاه الامام يحيى بقصيدة عصماء تفيض حزنا وأسى . على انه لا يلفت النظر بين ابناء الامام الموجودين فى قيد الحياة

أحد أكثر من الأمير أحمد . وليس صحيحا مايذيعه البعض من أن هذا الأمير ماهو الاجندى شرس سيء الخلق قاسى القلب . ومن المحتمل أنه كان لصلابته فى الماضى بعد المظاهر ولـكنه بمضى الزمن ومع تقدمه فى السن بعد أن أربى على الأربعين قد تهذبت أخلاقه وتغير الـكثير من طباعه. وهو يهتم كل الاهتمام بالمسائل الحربية التى يكرس لها معظم أوقاته والـكثير من جهده وتفـكيره . هذا على أنه لا يمكن القول بان أفكاره ليست منصرفة الى غيرها من المسائل وربما كان ينقصه بعض « الاحساس بالعالم » الذى يقال بان أخاه محمدا كان قد اكتسبه بسفره الى ايطاليا لانه رغم كل ما قيل فيه رجل واسع الادراك متوقد الذهن حاضر البديهة اذ انه عندما حضر الى اليمن العالم الاثرى الشهير « كارل راتينس » لاتمام اكتشافاته الاثرية بالوسائل القليلة التى كانت بين يديه ربما كان الأمير أحمد هو اليمنى الوحيد الذى تتبع اعماله باهتمام . ثم أنه أخذ بعد ذلك فى استكمال ابحـاث العالم النمساوى فى « غيمان » وفى « نخـلة » بنفسه حتى كشف عن أشياء عظيمة القيمة منها تمثال حميرى من البرونز جميل الشكل متقن الصنعة الى حد بعيد .

ولما عاد الى صنعاء ترأس اللجنة التى شكلت لادخال الاصلاحات على نظام الحـكم فى اليمن . وقد وضعت هذه اللجنة الاسس لنوع من الدساتير سوف يشكل بمقتضاه عدد من « المجالس » فى البلاد ولسوف يكون فى اليمن « مجلس سياسى » لبحث الشئون الداخلية والخـارجية « ومجلس حربى » يضم كبار قواد الجيش « ومجلس تشريعى » يتألف من العلماء الزيود والشوافع على السواء للنظر فى المسائل القضائيه . وسوف توضع ميزانية للدولة وسيعاد تنظيم المحاكم الشرعية بانشاء محكمة للاستئناف ومحكمة للنقض والابرام كما ستنشأ لجنة لتنفيذ القوانين . وقد تقرر أيضا اعادة النظر فى كافة الوظائف الادارية وابعاد الموظفين المرتشين وغير الاكفاء الذين يتولونها وزيادة كفاية الجيش ومقدرته بفرض الخدمة الاجبارية على كافه أفراد الشعب وبالحصول على أسلحة حـديثة ونشر التعليم واذاعته بين جميع طبقات الأمة وتنظيم الادارة المالية وتسهيل المواصلات واصلاح الطرق واتخاذ التدابير اللازمة للقيام باحصاء عام لسكان البلاد

ولقد كان من شأن عودة سيف الاسلام أحمد الى صنعاء ومسألة ادخال الاصلاحات المقترحة ان جعلت « السادة » يفرضون كل الفروض فمن قائل أن الامام قد تعب من كثرة مشاغله وانه يفكر فى قسط أوفر من الراحة فى قصره الجديد الذى شيده أخيراً فى « الروضة » ومن قائل أن الامام يرمى الى أن ينقل تدريجيا الى يدى أكبر ابنائه ادارة البلاد وهكذا يتيح الفرصة لسيف الاسلام أحمد للقيام بتجاربه وتقوية مركزه وتثبيت هيبته فى النفوس ولكى يعده لمستقبل عظيم ينتظره

ولما مرض الامام نصح للرؤساء الزيديين الذين يتحتم أخذ آرائهم فيمن يخلف الامام – بان ينتخبوا الأمير أحمد فكان منهم واحد أجاب بقوله : انه لم يحن الوقت بعد للكلام فى مثل ذلك . وقد أثبتت الحوادث ان ذلك الرجل الذى قال ذلك كان على حق فيما قال . على أن الرؤساء والزعماء الآخرين وافقوا على انتخاب الامير أحمد اماما لليمن ولكنهم اضافوا أحد التحفظات بقولهم « اذا اثبت استحقاقه وجدارته لهذا المركز »

ومما لاشك فيه أن هذا التعيين له قيمة نسبية لا غير وعلى الأخص من الوجهة القانونية لانه يوجد فى الوقت المناسب مرشحون آخرون من المحتمل أن يظهروا بعد موت الامام ولست أدرى اذا كان هناك من انجال الامام الآخرين من يتطلع الى هذه الخلافه فان البعض منهم لا تنقصهم الشجاعة والكفاية والذكاء وقد استطاعوا أن ينالوا ثقة الشعب وعطفه ومحبته باخلاقهم الكريمة وحسن سلوكهم وأدبهم وكرمهم ولطف معشرهم وبتداخلهم فى كثير من الظروف لدى والدهم لمصلحة الكثيرين من مواطنيهم من كافة الطبقات .

هذا فضلا عن ان اليمن لا تنقصه الاسر الشريفة العريقة فى النسب والتى تفخر بانتسابها لعلى بن أبى طالب وفاطمة والتى كان من أفرادها بعض ملوك الزيديين والتى لايزال فى مقدورها أن تمد مملكة الزيديين بملوك آخرين. وصفوة القول أنه يوجد فى اليمن أو سوف يوجد حتما من يتوق لخلافة الامام على عرش اليمن ومنافسة الامير أحمد . وتلوك السنة اليمنيين فى الوقت الحاضر أسماء

أكثر من شخص قد يرشحون أنفسهم لهذا المركز . ومن العجيب أن يتحدث الناس عن هذا الانتخاب كما لو كانوا يتحدثون عن أمر اكيد سوف يتم اليوم أو غدا أو بعد غد على أن الامام يحيي لا يزال ـ ولله الحمد ـ قوى البنية أخضر العود صحيح الجسم موفور العافية .

ولما عاد سيف الاسلام أحمد الى العاصمة أخذ يشمل بعنايته جيش البلاد الذى يعتقد أن فيه أقوى دعامة للامامة وامتن ضمانة للاستقلال . وقد أحبه الجنود وضباط الجيش وقواده ولم يكن ذلك لشجاعته فحسب بل لأنه أوحى إلى أبيه بزيادة مرتبات الجند من خمسة ريالات الى ستة فى الشهر ولأنه أخذ يهتم بمسألة تحسين مرتبات الموظفين . على أن التعليم والتسليح قد بقيا بعد حوادث عام ١٩٣٤ كما كانا قبلها دون تغيير أو تعديل .

ولم يكن للخلاف مع الحجاز عاقبة وخيمة أو نهاية محزنة ولله الحمد ولكنه أظهر بجلاء أن البلد الذى يريد أن يعيش حرا مستقلا مرهوب الجانب لا يجب ان يبقى دائما كما هو الآن . أو كما كان دائما فان التعصب الوهابى رغم أنه يسبب الكثير من المصاعب للحكومة السعودية ويقيدها ببعض القيود لم يمنع الملك ابن السعود من تمهيد الطرق فى قلب الصحراء ومن مد جيوشه بالوسائل والآلات الميكانيكية الحديثة . والعساكر اليمنيون من خيرة الجنود وأكثرهم شجاعة ويمتازون بفضيلة المقاومة وسرعة السير والصبر على احتمال المشقة ولكن تسليحهم لا يزال الى اليوم أوليا وفى حاجة الى الاستكمال بينما وصلت الجيوش السعودية الى الحديدة فى اثناء الخلاف الاخير فى ثمانمائه سيارة مسلحة وكانت تحت ايديها دبابات ضخمة وسيارات مصفحة ومتراليوزات ميكانيكية . وهذه كلها اشياء تدعو الى النظر والتبصر ويجب أن تكون فيها عبرة وموعظة ! !

واليمن ولو أنه لا يزال فى اعتكافه وعزلته عن العالم الخارجى الا أنه يمكن القول بان الافكار الحديثة بدأت فى التغلغل فيه وليس من السهل فى هيئة اجتماعية مثل هذه تحديد الرأى العام واتجاهاته بدقة ولكن يبدو للانسان أنه لا يكون مخطئا اذا ما أكد أن عقيدة الجمود المقدسة ليست الآن راسخة كما كانت فى ضمير الشعب اليمنى .

ولقد كان من حكمة الامام وبعد نظره العمل على طمأنينة الذين من الممكن تسميتهم باسم المحافظين أى الزيود المتعصبين الذين لا يرون فى كل عمل من اعمال التجديد الا الخطر والخراب. ولكن يوجد الآن من أصبح يرى الخطر كل الخطر فى عدم القيام بهذا التجديد فى أسرع وقت وفى بقاء اليمن ملقيا مراسيه فى الماضى مقيدا باغلال تقاليده القديمة كما يوجد الآن من اصبحوا يقولون فى صراحة أنه قد حانت الساعة لابدال التعصب الدينى بشىء آخر يختلف عنه تمام الاختلاف وباسطورة أخرى جديدة بأن تقوى البلاد وتسير بها نحو مقدرات جديدة واغراض أخرى نبيلة ومستقبل باهر عظيم .

ومما لاشك فيه أن اليمنيين حتى عندما يفتخرون بانهم أحرار من كل قيد يرفضون باباء وشمم التشبه بالعالم الخارجى اى عالم غير المسلمين أو التطلع لشعوب أوربا وأمريكا كما يتطلعون للشعوب العربية . وليس هذا رأى سواد الشعب بل هو رأى الذين يشعرون برغبة شديدة فى التقدم والارتقاء تلك الرغبة التى تبدو فيما يقومون به من أعمال عظيمة وفى تبدل افكارهم وعاداتهم تبدلا أكيدا ولو أنه بطىء وهذا ما يجعلهم فى غاية الحيرة والقلق والتردد .

وفى الحق ان الاجانب قد وضعوا أقدامهم فى البلاد العربية الاخرى وحتى الحجاز نفسه قد أصبح يفكر فى منح امتيازات باستخراج البترول من بلاده وبانشاء طرق للسيارات لجماعة من الممولين الامريكيين على أن اليمن يستطيع ان يفخر بأنه بقى حرا من أى نوع من أنواع التبعية حتى ولو كانت تبعية مقنعة وبأنه لم يقبل فى داخل بلاده أمثال لورنس أو فيلبى وهذا فى الحق شىء جميل ولكنه لا يحل المشكلة فى شىء .

ويعيش الوهابيون فى صحراوات شاسعة جرداء كثيرة الأقذار ولكنهم عندما يتحدثون عن المسافة بين اية مدينة من مدنهم وأخرى يذكرون الساعات التى تستغرقها السيارات فى السير بين المدينتين . أما اليمنيون الذين يعيشون فى بلاد خصبة التربة ذات ثروة واسعة ويمكنهم أن يتحدثوا اليك عن بلادهم التى فيها الذهب والفضة والنحاس والحديد والاحجار الكريمة

والبترول والاملاح المعدنية والطلق والبلور الصخرى وغير ذلك فاذا ماسألتهم عن الزمن الذى يقطعه المسافر من صنعاء الى تلك الاماكن التى توجد بها تلك الاشياء النفيسة قدروا لك المسافة بالايام التى تنقضى فى السفر على ظهور الابل !

ولقد كان الاحرى باليمن الذى يسير وحده بدون اية وصاية من احد ومن أى نوع أن يصير بسبب ثروته العظيمة واستقلاله التام عاملا نشيطا نافعا من عوامل الاقتصاد العالمى . وقد وكل الزيود الامام يحيى فى عام ١٩٠٤ وألقوا على كاهله واجبا عظيما قام به خير قيام على أن هناك واجبا آخر لايقل اهمية أو صعوبة عن الواجب الأول وهذا الواجب سوف يلقى على عاتق خلفه العظيم « سيف الاسلام احمد » للقيام به وأكبر الظن أنه سوف يكون عند حسن ظن الجميع به وما ذلك عليه بعزيز .....

١٣

مصيف الامام يحيى

عندما يبرح الامام عاصمة ملكه لقضاء شطر من أيام الصيف فى قصره الملكى فى « حجة » ينتقل معه كل رجال بلاطه وحاشيته ويأخذون فى السير برفقته ويخرج هذا الموكب اللجب من باب كبير مزين بكثير من الزخارف والتخاريم يفتح فى سور صنعاء — فى جلبة وضوضاء تصم الآذان اذ ينفخ عساكر الحرس من فوق الاسوار فى أبواقهم ويوقعون نشيدا لا بأس به فيه الشىء الكثير من انغام نشيد رواية « عايدة » الشهير بينما تصيح الجماهير صياحا عاليا ويأخذ رجال « العكفة » (الحرس الخاص) فى اثناء رقصاتهم التوقيعية فى انشاد الاغانى والقصائد فى مدح مولاهم العظيم بكل ما أوتوا فى أصواتهم وحناجرهم من قوة.

وتتقدم هذا الموكب عربة المليك وهى تترنح فى سيرها وتتمايل ذات اليمين وذات الشمال فوق الطرقات الغير المستوية بينما يسير على كلا الجانبين الأمراء والوزراء واعيان البلاد وهم يمتطون جيادهم العربية الأصيلة. كما يسرع عساكر الحرس بالجرى على أقدامهم ويلى ذلك حشد كبير من البغال المطهمة المسرجة بسروج حمراء وخضراء هى «ركائب» السادة وكبار الموظفين والاعيان والكتاب ثم يسير بعد ذلك رتل طويل من حمير الخدم تحمل على ظهورها النرجيلات الفخمة المزركشة ثم يلى ذلك كله عدد من الجمال المحملة ويسير فى اثر كل هؤلاء جمهور غفير لاعد له ولا حصر.

هذا وتكون قد قامت من فناء « القصر » فى الليلة السابقة قافلة عجيبة

عزلت شخصياتها الهامة فى مقصورات (الحريم) السرية المحجوبة . وهؤلاء هن نساء محجبات لا تصل اليهن الانظار وأطفال صغار يكون بعد ان انقطع عليهم لذيذ الرقاد وعدد من الجوارى المشاغبات من سمراوات وبيضاوات وكلهن عاليات الصوت شغوفات بالجدل محبات للخصام . كما تكون الجمال قد نقلت عددا لا يستهان به من الحقائب والصناديق المنقوشة بنقوش هندسية وزخرفية متعددة الالوان تبهر العيون وتحير الألباب .

وقد جرت نساء (المقام) على نظام شديد الصرامة فى معيشتهن فهن يقرن دائما فى خدورهن ولا يفارقن مساكنهن اذ أنه قد خطر عليهن كل اتصال بالعالم الخارجى وهن لازلن فى التاسعة أو العاشرة من أعمارهن . وعندما يضطررن للسفر أو الانتقال من مكان الى مكان يقمن برحلاتهن فى اثناء الليل وفى غير الليالى المقمرة ويسرن فى حيطة وحذر كى لا يراهن انسان كما لو كن مقبلات على ارتكاب احدى الحرمات .

ولكن ألا يكفى القناع الكثيف الذى يغطين به وجوههن ؟

أما أسفار الامام فانها تكون على العكس من ذلك تماما فى وضح النهار لكى تتاح الفرصة للشعب اليمنى للابتهاج والفرح بمليكه ولكى يحظى بشرف توديعه وهو ذاهب لقضاء بعض الوقت للراحة والاستجمام وتبديل الهواء فى مصيفه الجميل .

وصنعاء مدينة ذات مناخ معتدل وتمتاز عن غيرها من المدن الاخرى بطقس جميل فى كل فصل من فصول السنه ولا يعرف اهلوها درجة الحرارة المرتفعة التى تتلظى فيها بلاد تهامه المحرقة . وتقع العاصمة اليمنية على ارتفاع خمسين وثلثمائة وألفى متر عن سطح البحر وتبعد بمقدار خمسة عشر درجة عن خط الاستواء وهى غنية بما فيها من المزروعات اليانعة فأنى سار الانسان فيها أو حولها لا تقع عيناه الا على حدائق غناء ومروج فيحاء وبساتين نضرة كما أن المياه التى تجرى تحت أراضيها غزيرة وارضها ومناخها يصلحان لكل

نوع من أنواع الزراعة . وفى الحق انه ليست هناك أية حاجة تدعو الانسان لان يهجر فى فصل الصيف هذه المدينة المريحة التى تنقضى الحيـاة فيها على أحسن ما تـكون والتى فيها كل ما يجلب البهجة والسرور والانشراح ولـكن ماذا نقول والتصييف عادة قديمة ونظـام جرى عليه الناس من قديم الزمان ؟

واذا كانت هذه المدينة لطيفة فاتنة فان ضواحيها ألطف وأفتن وفيها سماحة وبهجـة يعجز القلم عن وصفها ولا أدرى اذا كان شـعراء اليمن قد شبهوا صنعاء بمـا حولها من سهول خضراء ومروج يانعة بلؤلؤه ثمينة تطل من أصدافها واذا كان قد فاتهم هذا التشبيه فان فى هذا ما يدهش كل الدهشة اذ أنه فى ذلك الزورق الأخضر العظيم المحوط بالمرتفعات والهضاب العالية يبدو عدد من القرى الضاحكه الباسمة التى يستهوى منظرها الالباب ومن هذه القرى قرية « الوادى » (١) التى كان يقصدها فى العهود الماضية أئمة اليمن لقضاء شطر من أيام الصيف فى ربوعها وتبعد هـذه القرية اثنى عشر كيلو مترا عن العاصمة الى جهـة الغرب وكان لهم فيهـا قصر فخم (٢) فسيح الجنبات صعب المرتقى شيد فوق أكمة عالية من الصخور تقف بمفردها وسط السهل كانها بناء فرعونى عظيم وكانوا يمتعون أنفسهم فى هذا القصر بمشاهدة السهول الخضراء والمرتفعات العالية التى يظهر فيها تنضيد الأحجار وتصفيفها فوق بعضها والغابات الشاسعة الجميلة التى يسهل فيها صيد الأرانب البرية والحجلان كما ترى منه الحدائق الفخمه والحقول الناضرة الممتدة على طول جنبات ذلك الوادى الفياح ولـكن حدث أن تسلق بعض الثوار فى أحد الأيام أسوار ذلك الحصن الصخرى المنيع وقتلوا الأمام غيلة (٣).

---

(١) هو وادى ضهر

(٢) وقد اصلح هذا القصر وجدده من جديد حضرة صاحب الجلالة الامام يحيى ملك اليمن

(٣) هو الامام الناصر لدين الله عبد الله بن الحسن وذلك فى سنة ١٢٥٤ هـ

ومن ذلك الوقت صرف النظر عن التصييف فيه وكان هذا آخر عهده بملوك اليمن فلم يطرقه اليوم غير البوم والغربان ولم يلبث أن بدأ فى التهدم والانهيار حتى لم يبق فيه فى الوقت الحاضر سوى جدرانه العظيمة القائمة التى لاتزال فتحات نوافذها تشعر الناظر اليها بالرهبة وتدخل على قلبه الانقباض ويخيل أنها لا تزال باقية للتذكير بذلك الحادث المشئوم الذى وقع لذلك الامام المسكين !

انتقل مصيف أئمة اليمن بعد ذلك إلى « حجة » وهى بلدة غنية بمياهها وزرعها . وترتفع مساكنها فوق سفوح الهضاب اللطيفة التى اكتست كلها بالمزروعات . ولكن ترى أى شىء لا تنبته بساتين « حجة » الواسعة ؟

انها تنبت الفواكه على اختلاف أنواعها والخضر والأعشاب ذات الرائحة العطرية والأزهار من كل نوع ومن كل لون . وفى فصول الأزهار التى تستمر هنا وقتا أطول من أى مكان آخر تزين أشجار اللوز والخوخ والبرتقال والنارنج والمشمش مناظر الريف بألوان حلوة فاتنة على أن أشهر ما تنتجه « حجة » هو العنب الحلو اللذيذ الطعم الذى لايمكن أن يضارعه عنب اخر فى حلاوته والذى أشار اليه العلامة العربى (ابن سيناء) فى كتابه الشهير فى الطب . ويوجد فى حجة من هذا العنب عشرون صنفا مختلفة الطعم والشكل واللون تنضج فى عدة فترات من السنة حتى لتكاد لا تختفى عناقيد هذا العنب الجميلة من الموائد اليمنية فى أى فصل من فصول السنة . والى هنا يأتى يهود صنعاء ليأخذوا مؤونتهم من النبيذ الذى هو مشروبهم التقليدى فى احتفالاتهم الرسمية التى يقيمونها فى أيام السبت ذلك النبيذ الذى غالبا ما يعطره هؤلاء التعساء بماء الورد !

والقصر الملكى فى « حجة » قصر واسع الجنبات فسيح الأرجاء مريح

للغاية فيه ما تشتهيه الأنفس وتلذ الأعين ومع ذلك فانه يغلب على الظن أنه لن يكون له بعد حين شرف استقبال (المتوكل على الله) وقد يحدث أيضا للقصور اليمنية ما يحدث لنساء اليمن عندما يفقدن عطف مولاهن ويجدن أنفسهن قد استبدلن بحظيات جديدات فقد أمر جلالة الامام يحيى بتشييد قصر آخر ليستريح فيه فى (الروضة) على بعد عشرين كيلومترا الى شمال صنعاء على احدى الطرق التى تسلكها القوافل المسافرة إلى مكة .

وليست الروضة قرية من القرى بل هى مدينة كبيرة بها مسجد عظيم لايقل جمالا وفخامة عن أجمل مساجد صنعاء وبها جبانة كبيرة تشغل بقبورها ساحة من أكبر الساحات يستطيع الانسان فى طرقاتها الفسيحة التى تحف بها الحدائق والمتنزهات من كلا الجانبين أن يتنزه أجمل النزه وألطفها وأن يسير فيها الساعات الطوال دون أن يشعر بالملل أو التعب نظرا لجمال مناظرها وحسن تنسيقها فهى أشبه ماتكون (بالشانزليزيه) فى باريس أو (الأونتردنلندن) فى برلين . على أن هذه المدينة الجميلة قد تهدم جانب كبير من مساكنها بفعل القنابل التى أطلقها الأتراك عليها أثناء المعارك التى دارت رحاها فى اليمن بينهم وبين الثوار اليمنيين .

ومما يسترعى النظر حقا أن يمضى كل هذا الوقت دون أن يفكر انسان فى ضرورة اعادة هذه الأبنية المتهدمة سيرتها الأولى أو فى اخلاء هذه المجازر البشرية مما يكون قد وقع تحتها من الجثث وأشلاء الموتى ولكن (الروضة) التى تزدهر بزروعاتها وبحركتها التجارية الواسعة فى منتجاتها تزداد اتساعا كل يوم بما يشيد فيها من المبانى والمنشآت ويمكنها أن تفخر وتتيه على غيرها من مدائن اليمن بتلك الجوهرة المعمارية الفريدة التى هى قصر الملك الصيفى الجديد .

وسواء أصح أو لم يصح ما قيل من أن الامام يحيى قد قرر أن يسمح لنفسه بقسط أوسع من الراحة وأن يقضى معظم أوقات السنة فى هذا القصر

المنيف فان العناية العظيمة التى كان يباشر بها الأعمال النهائية فى هذا القصر من شأنها أن تبعث على الظن بأن (قصر الروضة) سوف يكون له شأن عظيم وأنه قد أعد لغرض أسمى وواجب أجل بكثير من الواجب الذى خصص له الى اليوم كمقر صيفى للمليك .

ويقوم هذا القصر الفخم العظيم البالغ الزخرف والمتناهى التنسيق فوق احدى الربى الخضراء بين البساتين النضرة والحقول اليانعة التى خصصت فيها ساحتان هائلتان لزراعة الكروم والقات والفواكه والأزهار ويحتوى هذا القصر على عدد كبير من الابهاء الجميلة والايوانات الفسيحة نسقت كلها أحسن تنسيق وعلى شرفات متعددة وهو شامخ البنيان عظيم الارتفاع لدرجة أنه لكى يصل الانسان الى أعلاه يجب عليه أن يصعد مايزيد على المائة سلم فاذا ما صعدها وبلغ قمته فانه يرى ـ وياللعجب ـ مشهدا من أجمل المشاهد وأبرعها واروعها .

ويشتغل العمال فى الوقت الحاضر ومعظمهم من اليهود بهمة لا تعرف الكلل لانهائه والفراغ من زخرفته فى أسرع وقت ممكن . وقد حفروا فى أعلى واجهته بعض آيات من "القرآن"، كتبت بخط عربى جميل — كما زينوا نوافذه وشرفاته بزخارف ونقوش بديعة من الجص والرخام الملون الجميل .

والعجيب فى قصر الروضة الملكى والشىء الذى يدعو الى الدهشة انما هو (المصعد) الذى وضع فيه . ويمكن القول بأنه يوجد الان مصعد فى اليمن . والعمال الايطاليون المقيمون فى اليمن هم الذين جلبوا هذه الآلة الحديثة الصاخبة وشيدوا لها (كابينة) جميلة أنيقة تليق بقصر ملكى مثل (قصر الروضة) وأعدوا لها كل لوازمها حتى لم يبق الا المحرك (الموتور) لكى تقوم بوظيفتها ولكن عندما عرف الامام يحي ثمن هذا المحرك وما

يتكلفه نقله الى القصر من المتاعب والنفقات لم يشأ أن يسمع كلمة واحدة عنه وقال .

ولـكن لم هذا المحرك ، وما فائدته ، وهل ليس عنه من بد ؟ ربما ظن الناس أن البلاد اليمنية تنقصها السواعد القوية ! !

وهكذا أصبح مصعد القصر الملـكى فى الروضة يرتفع وينخفض ويعلو ويهبط بواسطة عجلة كبيرة يديرها عساكر الحرس بسواعدهم . وهم بحمد الله كثيرون!

١٤

نبأ من سبأ!!

فى شرق صنعاء، وعلى مسافة خمسة أيام منها على ظهور الابل تمتد احدى المناطق ذات الاهمية التاريخية والاثرية العظيمة. وتكاد هذه المنطقة تكون مطمورة تحت الاتربة الراسبة وفيها أطلال « سبأ » تلك المدينة العجيبة التى كانت تسكنها الملكة بلقيس التى كانت زوجة (سيدنا سليمان) عليه السلام.

ونحن مدينون بذلك القليل الذى نعرفه عن مدينة « سبأ » التى يقال لها أيضا « مارب » لثلاثة من العلماء الباحثين الذين استطاعوا التوغل فى قلب بلاد العرب والوصول الى هذه المنطقة وجمعوا من اطلالها بعض كتابات منقوشة على الحجارة. وهؤلاء الثلاثة هم « آرنو » الذى ذهب اليها فى عام ١٨٤٣ م « وهالفى » الذى كان بها فى عام ١٨٦٩ ثم « جليزر » الذى وصل الى هذه الاطلال فى عام ١٨٨٠ ولم يستطع اوروبى واحد بعد هؤلاء الثلاثة ان يجوس خلال هذه الديار. ولاتزال « سبأ » الى يومنا هذا تحتفظ بسرها الكمين العجيب كاملا غير منقوص.

وقد شيد اهل « سبأ » فى واد كبير غرب مدينتهم سداً عظيما كان يكبح جماح مياه السيول والانهار وكانوا يروون من هذه المياه اراضيهم التى صارت عظيمة الخصوبة وكانوا مشهورين بالاتجار فى العطور التى كانت تنتجها بلادهم والبلاد الحبشية التى كانوا يذهبون اليها فى قوارب مصنوعة من الجلود وكانت لهم معابد وهيا كل فاخرة وقصور بديعة شاهقة متينة البنيان قد ازدانت جدرانها وأبوابها واسقفها بالعاج والمعادن النفيسة والاحجار الكريمة وكانوا يملكون رياشا وامتعة واثاثات من ذهب وفضة

ولكن اهل « سبأ » كانوا كفرة مشركين يعبدون الشمس والقمر والثور والغزال من دون الله ولذلك عاقبهم الله على كفرهم بهدم سد مدينتهم الذى اغرقها وشتت شمل سكانها .

وتحطيم سد (سبأ) حادث تاريخى ورد ذكره فى « القرآن » وأمتلأت به كل الاساطير القديمة التى بقيت فى بلاد العرب عن مملكة « سبأ » . وليست لدى اليمنين اية فكرة فى الوقت الحاضر عن القاء ضوء على تلك الاطلال اليمنية الباقية من هذه المدينة الشهيرة أو اماطة اللثام عن تاريخها ... (وهل يسمح مسلم صالح لنفسه أن يكشف ما أمر الله به ان يدفن؟)

ولا يوجد من بينهم من يرغب فى تفسير هذه الكتابات والنقوش وحل رموزها لمعرفة حقيقة الماضى وكشف أسراره ... أليست الأساطير أجمل من التاريخ ؟

ولكن القليلين منهم الذين جرؤوا على الحفر فى هذه المنطقة واستخراج بعض التماثيل هم من البدو الذين يبيعون هذه الأشياء للاجانب وهم مندهشون لتقدير هؤلاء لبضاعتهم كل هذا التقدير !

ولقد استطاع علماء الآثار الذين وصلوا الى « سبأ » بعد أن تعرضوا لأشد المخاطر - أن يجمعوا الشىء القليل وتمكن العالم (جليزر) من اقناع أحد أشراف مدينة (مارب) بأنه مسلم واتخذ منه دليلا ومرشدا وسافر الاثنان من صنعاء الى ذلك الوادى الذى يجرى بين جبلى نحم وخولان ووصلا بعد أربعة أيام الى وادى (شبوان) ثم استأنفا سيرهما فى أحد الطرق الوعرة التى لايمكن السير فيها الا على ظهور البغال والذى يخترق المقابر القديمة ووصلا بعد ثلاث ساعات الى مكان (المدينه السبئية) القديم

ولكن حدث فى هذه الأثناء أن ذاع خبر سفر ذلك (الكافر) الى سبأ ولذلك قرر البدو قتله هو ومرشده ولما علم (جليزر) بعزمهم هذا اضطر للاختفاء فى النهار والتنقل فى ظلام الليل وقد استطاع فى أثناء عودته بجهد

أن يرد اعتداء البدو المسلحين الذين كانوا متربصين له. ورغما من كل هذه الصعوبات وحرمانه من أية آلة من الآلات الفنية استطاع العالم النمسوى أن ينسخ ثمانمائة وخمسين مخطوطا من المخطوطات النفيسة الأمر الذى يدلنا على مقدار الثروة الأثرية العظيمة فى هذه المنطقة .

ولم يسمح الامام يحيي قط لأى أجنبي بالسفر إلى مدينة (سبأ) وقد أصدر أمره من عدة سنوات بعدم بيع العاديات منعاً باتاً . وقد حاول أحد العلماء من عهد بعيد السفر الى (مارب) من حضرموت ولكنه قبض عليه وأبعد إلى خارج حدود البلاد كما صودرت عدة صناديق ملأى بقطع أثرية وتماثيل كان قد اشتراها عالم آخر من بعض البدو المقيمين فى المناطق القريبة من هذه الأطلال القديمة.

واذا ما سأل سائل عن سر هذه الشدة تنتحل له شتى الأسباب ويعتذر له بمختلف المعاذير فقد قال لى أحد العلماء المتقدمين فى السن أنه تسكن فى منطقة سبأ قبائل من البدو المتوحشين الذين يأكلون اللحوم النيئة وأشراف هذه القبائل ورؤساؤها يضطهدون القرويين المساكين ويلزمونهم بالعمل فى حقولهم وبالقتال من أجلهم . وكثيرا ما يرسل الامام يحيي اليهم حملات عسكرية لجباية العشور منهم ولذلك يرى من الحزم عدم التصريح للاجانب بالمغامرة بدخول تلك الأقاليم التى يسكنها قوم لا يعترفون بحكومة صنعاء اعترافا جديا ولا يدينون لها بالاخلاص وقد قال لى عالم آخر أن الامام يحيي لايرى اية قيمة لهذه الاحجار القديمة ولكنه لما يرى اهتمامكم العظيم بها انتم معاشر الاوروبيين فانه يجد من الحكمة عدم تركها لكم .

وعند مقابلتى للامام وجدته منشرح الصدر ولذلك انتهزت هذه الفرصة وطلبت اليه أن يسمح لى بالسفر الى « سبأ » وقد اجابنى اجابة ملتويه قائلا: «ان وجودك هنا الى جانبي يسبب لى سرورا عظيما اشكر الله عليه فابق فى صنعاء ما شئت واستمر فى زيارة الضواحى والقرى الجميلة التى لنا فيها قصور جميله تنزل فيها على الرحب والسعة كما بدا لك»

ولكن هل تدعنى اذهب الى « سبأ » ؟

ان السفر الى « سبأ » لمن اصعب الامور واشقها. فضلا عن أنه سيحرمني من رؤيتك عدة أيام ولا يوجد هناك طريق تستطيع أن تسلكه . . . فهل من الممكن أن أدعك تسافر الى مكان لا توجد فيه طرق سهلة مأمونة ؟ . . . انني أنا أيضا شديد الرغبة في زيارة مدينة « سبأ » التي لا يزال يوجد فيها الى اليوم جزء من ذلك السد العظيم العجيب الصنع وربما تعجب اذا علمت أنه قد بني بالحجارة المربعة وأن هذه الحجارة من ثلاثة ألوان ففيها الأخضر والوردي والرمادي وأنه يوجد على مقربة منه عمود قائم نقشت على جوانبه قواعد توزيع المياه التي كانت تروى الحقول التي كانت مصدرا لمعظم ثروة أهل سبأ الأمر الذي يدلك على ان ملكهم كان يقوم على أحسن نظام

وعند ذلك سألته قائلا :

وماذا فعل الله بالمدينة ؟

« عندما تحطم السور اجتاحت المياه المدينة التي أصبحت تغطيها الأتربة والطمى . ولقد كانت هذه المدينة كبيرة عظيمة الاتساع شامخة البنيان امتلأت مساحة كبيرة منها بالأعمدة والأحجار المزخرفة . وأما ما يستلفت النظر فيها أكثر من أي شيء آخر فهو عرش الملكة « بلقيس » وهو ذلك المعبد الكبير الذي أصدر « سليمان » عليه السلام أمره الى الجن بتشييده لملكة سبأ . ولقد صحت عزيمتي على اصلاح الطريق بين صنعاء ومارب وتمهيده بحيث تستطيع السيارات أن تسلكه وآمل أن يتم هذا العمل في مدى سنتين . وعندئذ سوف اذهب الى سبأ وسوف ادعوك بمشيئة الله لمرافقتي اذا اردت ! »

* * *

ومن الممكن ان يرى الانسان في متحف « ترمى » بايطاليا بعض آثار بلاد العرب الجنوبية وهي نقوش وشظايا وقطع هندسية صغيرة وتماثيل غليظة من الحجر عني بجمعها الدكتور أنسالدى أثناء اقامته في مدينة « صنعاء » واستطاع نقلها بعد ذلك الى ايطاليا بموافقة جلالة الامام . على أن هناك مجموعة أثمن وأكمل من هذه المجموعة أودعها في مدينة (عدن) شخص اسمه

(پارسی) كان يشتغل مدى خمسة وعشرين عاما فى اليمن بجمع العساكر المرتزقة والعمال للدول المستعمرة . وقد أودعت هذه المجموعة فى حانوت يفتح بابه على أحد الطرق الرئيسية . وترى فى واجهته عينات لمنسوجات يابانية واسلحة قديمة دمشقية وقطع كبيرة من العاج وتماثيل صغيرة من المرمر . وفى داخل هذا الحانوت يوجد المتحف الذى لا يفتح الا للزائرين من ذوى المقام والذى يخلب منظره الالباب ويبهر العيون فقد ضم مجموعة من تماثيل من الرخام الأبيض والمرمر وحجر الجير لملوك (أوزان) كما احتوى على قطع فنية وتيجان أعمدة وقلائد وأساور وخواتم من ذهب وفضة ولافتات من البرنز وأحجار جامدة وجعارين . وقد صفت على أرفف الحانوت وكوابيلها البيضاء بترتيب أحجامها وحسب ارتفاع كل منها تماثيل غليظة من الحجارة للملوك الذين حكموا اليمن من خمسة وعشرين قرنا من الزمان وقد استحضر الجانب الأكبر من هذه الأشياء من (أوزان) أو من (حضر موت) على أن فيها أيضا بعض آثار (سبأ) ومنها أيضا تمثال صغير لامرأة جميلة يؤكد صاحب الحانوت بانه تمثال ملكة (سبأ) التى قامت بتلك الزيارة التاريخية للملك سليمان .!

وآثار سبأ قليلة بل ونادرة حتى فى متحف صنعاء الذى انشأه جلالة الامام يحيى من أربعة أو خمسة اعوام فى دار (الصنايع) الذى هو قصر الضيوف والذى تنزل فيه البعثات الاجنبية التى تزور اليمن . وقد اعتاد الامام من بضع سنوات ان ينقل الى احدى غرف قصر الصنايع الآثار التى تؤول ملكيتها اليه باى وجه من الوجوه . وقد تكدس معظم هذه الأشياء الدقيقة ـ لعدم وجود أرفف او كوابيل فى الغرفة ـ فى صناديق البضائع المستعملة لصفائح الغاز . وعندما يأتى احد الزوار لمشاهدة المتحف يقوم الحارس بفتح الصناديق واخراج الآثار منها وصفها على قواعد النوافذ لكى يستطيع الزائر رؤيتها والتمعن فيها وكثيرا ما يحدث فى أثناء هذه العملية ان يقع احد التماثيل على بلاط الغرفة ويصبح هشيما وعندئذ يدفع الحارس بقدمه الكسور والشظايا

المتخلفة عنه الى ركن من اركان الحجرة دون ان يبدو على وجهه اى اثر للاسف او الاضطراب ولا يعلم الا الله وحده قيمة هذه التحف الحجرية التى جمعت من اطلال مدن بلاد العرب الجنوبية القديمة . وتبدو القطع الهندسية والآثار النذرية او الجنائزية والرسوم البارزة ذات اهمية عظمى للاجنبي اما التماثيل الصغيرة العديدة المصنوعة من الرخام او المرمر والتى تمثل رجالا ونساء فى اوضاع متشابهة اذ تمثلهم جالسين وكوع كل واحد منهم ملتصق بخصره ويداه ممدودتان الى الأمام فانها تدل على فن أولى على أنه توجد فى متحف صنعاء أشياء عظيمة القيمة عثر عليها بفضل أعمال الحفر التى أجريت فى منطقتى غيمان ونخلة بأمر وتحت أشراف سمو الأمير سيف الاسلام أحمد . ولعمرى ان التمثال البرنزى الكبير الذى عثر عليه فى جهة « نخلة » انما هو آية من آيات الفن فهو يمثل أحد الأبطال الاقدمين عارى الجسد له أعضاء متناسبة تمام التناسب ومما يؤسف له أشد الأسف أن العمال القايلى الخبرة قدهشموه فى اثناء عملية الحفر وليس فى اليمن كله من يستطيع القيام باصلاح هذه الأشياء النفيسة التى لاتقدر بمال . وقد جمع هذا التمثال وأوقف على قدميه ودعم بدعائم معدنية بعد أن جمعت كل أجزائه الى بعضها وربطت بأسلاك حديدية .

ولما كان ساعد التمثال الأيسر مفقودا ولم يكون الحارس للآن رأيا حاسما عن الوضع الذى أراد المثال أن يعطيه لبطله فانك تجد الذراع فى بعض الاحيان مرفوعا الى أعلى الرأس وأحيانا أخرى ممدودا الى جانبه .

***

ولقد طلبت الى اسحق بن موسى أن يصحبنى الى بيوت « حى اليهود » التى تصنع فيها العاديات الزائفة لكى تباع فيما بعد باسم عاديات سبئية حقيقية فوضع الرجل يده على قلبه ورفع عينيه الى السماء وصاح قائلا :

« انك يا سيدى تطلب منى أن أريك شيئا اذا صح كان أعظم فضيحة لنا . ولكنى أعرف بدويا من بدو مدينة مارب يقتنى دائما اشياء قديمة يبيعها للاجانب سرا وبدون علم الامام »

وفعلا ذهبنا سويا للبحث عن بدوى (مارب) فى كل مكان . ترى ماذا فعل الله به ؟ وفى أى مكان اختفى فقد مضت أيام وأيام ولا يعرف أحد عن أخباره شيئا . ولما يئسنا من العثور عليه ولم نعد نفكر فيه ولا فى عادياته هانحن أولاء نقابله فى أحد الطرقات الصغيرة الموصلة الى المسجد الكبير قبل صلاة العشاء .

السلام عليكم !

وعليكم السلام !

وبعد التحيات المعتادة قبل البدء فى الحديث والسؤال عن الصحة وعن المحصول الى غير ذلك ندخل فى الموضوع ...

لقد كنا نبحث عنك يا صالح من عدة أيام لأن هذا الأجنبى يريدمشاهدة عادياتك فعليك بالذهاب اليه صبيحة الغد فى داره لكى تعرض عليه ما عندك منها

فاجابه البدوى قائلا :

ليس فى استطاعتى الذهاب فى الصباح الى دار صديقك المحترم لأننى مسجون . . ولكن حارسى يفك قيودى بعد الغروب فى نظير (بقشيش) أقدمه له لكى يدعنى حرا طليقا عدة ساعات من الليل . فاذا أراد صديقك استقبالى فى داره فانى على تمام الاستعداد للذهاب اليه فى المساء لان لدى بعض التماثيل البرنزية الجميلة التى سوف تسره كل السرور

وفى هذه اللحظة يقف عربى آخر لاستماع احاديثنا — كما يحدث دائما — (وهل فى ذلك غرابة ؟) ولكن البدوى سرعان ما يقف عن الكلام ولما يرى أن ذلك الرجل الواقف لا يريد أن يتزحزح من مكانه يقول لى .

سنعود الى الحديث عندما ينصرف هذا الرجل !

وعند ذلك ينظر العربى اليه نظرة كره واشمئزاز ويأخذ فى السير فى طريقه وهو يقول :

أنك لابد وأن تكون لصا مادمت لاتجرؤ على الكلام أمام الناس !

ولم يكن لدى صالح مايرد به على هـذا الكلام بل أخذ يحدثنى عن الاشـياء الثمينة التى سـوف يبيعها لى فى الغد والتى لا شـك فى أنها صنعت كلها فى « حى اليهود » بمنزل اسحق بن موسى !

١٥

خاتمة

.... ودعت بلاد اليمن الخضراء الوداع الاخير فى يوم من أيام الشتاء كان حره شواظا من نار . وكانت ريح الجنوب الشرقى الساخنة تداعب «السنابيك» وتجعلها ترقص رقصا متواصلا على صفحة الماء المتجعدة فى ميناء الحديدة الصغيرة .

وكانت فى انتظارى فى عرض البحر خارج الميناء احدى البواخر الصغيرة الممقوتة التى تقوم برحلاتها عبر البحر الاحمر دون أن تحترم أى احترام أو تعمل أى حساب لمواقيت القيام أو مواعيد الوصول والتى يسافر الانسان على ظهرها دون أن يعرف على وجه التحديد فى أى مكان ولا فى اية ساعة تقف وتلقى مراسيها .

واذا كان الانسان لا يعيش فى اليمن المعيشة التى تحلوله ولا يحظى فيها بكل ما يشتهى فان أصعب من ذلك وأشق على النفس الوصول اليها أو الارتحال عنها ومع ذلك فانى لا أذكر بأنى سافرت فى رحلة كانت احب الى نفسى من رحلتى الى اليمن أو احسن منها .

وعندما تشرفت للمرة الاخيرة بمقابلة جلالة الامام يحيى لالتماس الاذن منه فى السفر والعودة الى ارض الوطن تلطف — حفظه الله — معى كثيرا بان وجه الى كلمات كريمة تدل على شعور رقيق ونفس نبيلة وودعنى وداعا مؤثرا وأظهر نحوى عطفا لن أنساه ما حييت . وان انس لا أنسى جلالته ساعة أن وقف يبتهل الى الله أن يشملنى برعايته وتوفيقه وان يكتب لى السلامة .

وقد سلمنى جلالته « جواز سفر » ممهورا بخاتمه العظيم مكتوبا على ورقة نثر عليها ذلك المسحوق الاحمر الذى اعتاد ان ينثره على كل مايكتب .

وقد نقش على هذا الخاتم اسم جلالته والقابه « يحيى بن محمد حميد الدين أمير المؤمنين المتوكل على الله » كما كتب عليه نص جواز المرور الذى يبتدىء باسم الله الرحمن الرحيم وهو : « لا بأس من سفر فلان (وهنا يذكر اسم المسافر ولقبه وجنسيته) فلا يعترض عليه . »

وفى الحق ان الاعتراضات على سفرى لم تكن منتظرة ولم يكن لها أى أثر بفعل هذا الطلسم العجيب فان هذه الورقة التى وقع عليها جلالته بالخاتم الاحمر كان لها فعل كفعل السحر اذ كانت تخلى أمامى جميع الطرقات وتفتح فى وجهى كل الأبواب فى أسرع وقت وفى لمح البصر .

* * *

وداعا أيها اليمن الجميل !

وداعا أيها الشعب الوادع اللطيف !

وداعا أيها العساكر الظرفاء !

أنى لا أستطيع الا أن أقول لكم ان السفر ومبارحة بلادكم الجميلة المحبوبة بلاد السحر والاحلام تسبب للانسان الأسف والحسرة وتجعله يشعر بيقظة مزعجة مكدرة لان من يسعده الحظ بزيارة بلادكم والاقامة فى مدنكم الجميلة الفاتنة المنقطعة النظير ليخيل اليه أنه كان مستغرقا فى حلم عجيب لذيذ يود لو لم يستيقظ منه وأن يبقى مستغرقا فيه الى ما شاء الله !!!

انتهى

صحيفة	سطر	خطـأ	صـواب
٣	١٢	الزيتونة	الزيتونية
٨	٦	ظـاهر	ظـاهرة
١٣	٧	ليجلعها	ليجعلها
٤٥	١٩	هدوء	فى هدوء
٤١	١٠	الحرس	حراز
٤٣	١٠	سـوار	أسـوار
٦٢	٢٤	وجاعت	وجعلت
٦٤	٣	ذهيـة	ذهبية
٧٦	٨	وثار	ومثار
٧٩	٦	ولذك	ولذلك
٨٢	١٨	مق	من
٨٦	١٦	ينقل	بنقل
٨٧	٢٠	نحواس	نواس
١٠٥	٢٥	ترحوا	نزحوا
١٠٦	١٨	لذيذاقدم	لذيذ أقدم
١٠٩	٤	مبسمة	مبسـمـة
١١١	١	الأمامى	الأمام
١١١	٧	عنهم	منهم
١١٢	١٢	رقد	وقد
١٢٠	٨	خطر	حظر



LIBRARY
OF
PRINCETON UNIVERSITY



(NEC)
DS247
.Y45
F389
1947